عبّاس محمود العقاد

عالم السدود والقيود

تحرير
الحسّاني حسن عبد الله

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت (لبنان)

كلمة تقديم

عالم السدود والقيود الآن ــ عندي وعند كل عابر بسبيله ــ هو ذلك البناء المعزول في ناحية منزوية الى طرف من الأطراف في بعض أحياء القاهرة الواسعة الكثيرة ، كأنه يحس نفرة الناس منه ونفرته من الناس ، واسمه في سجلات الحكومة سجن مصر العمومي ، واسمه الشائع على الالسنة « قره ميدان » .

أما يوم كنت آوي اليه ولا ارى غيره ولا اسمع بالدنيا الا من وراء جدرانه فلم يكن بناء معزولا ولا كانت الناحية التي هو فيها ناحية منزوية الى طرف من الأطراف ، ولكنه كان هو العالم بأسره وبأرضه وسمائه ، وكان العالم الخارجي جزءا لاحقا به مضافا اليه ، وتلك شيمة في النفس الانسانية أن تنقل مركز الكون كله الى حيث تكون ، فالسجن وان كان عند السجناء منزلا بغيضا يصبحون ويمسون على امل الخلاص منه وكراهة الاستقرار فيه ، هو مع ذلك محور العالم ما داموا بين جدرانه ، وهو شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران ، فلو ظهرت في السجن صحيفة كبيرة لكان لأخباره فيها مكان « الحوادث المحلية » الظاهر في صدور الصحف السيارة ، ولكانت اخبار العالم فيه كأخبار الحوادث الخارجية ورسائل الأقاليم ومنقولات البرق والبريد . واذا ارتقى بعضها الى محل الرعاية والتنويه فانما يرتقي اليه بالاضافة الى سجين من السجناء أو حادث يدور حول عقره وحجراته وخباياه .

وهذه الصفحات هي خلاصة ما رايته واحسسته وفكرت فية يوم كنت انزل « عالم السدود والقيود » واشعر به ذلك الشعور،وأنظر الى العالم من ورائه ذلك النظر : لست اعني بها ان تكون قصة وان كانت تشبه القصة في سرد حوادث ووصف شخوص ، ولست أعني بها ان تكون بحثا في الاصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الاصلاح ،

ولست اعني بها ان تكون بحثا في الاصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الاصلاح ولست اعني بها ان تكون رحلة وان كانت كالرحلة في كل شيء الاانها مشاهدات في مكان واحد ، ولا ان استقصي كل ما رايت واحسست وان كنت اقول بعد هذا ان الاستقصاء لا يزيد القارىء شعورا بما هناك ، وانه لا فرق بينه وبين الخلاصة الا في التفصيل والتكرير ، وانما دعوى هذه الصفحات ـ بل خير دعواها ـ انها تتكفل للقارىء بان يستعرض عالم السجن كما استعرضته دون أن يقيم هناك تسعة شهور كما اقمت فيه(١) .

فان كانت الصفحات التالية عند دعواها فذاك وحده هو حقها من القراءة وشفاعتها عند القراء ، وهي اذن قد اختصرت تسعة شهور طوالا في مدى ساعات معدودات يطويها القارىء بين دفتي هذا الكتاب الصغير وهو يتفكه ولا يضيق ذرعا بالسدود والقيود ، وحسبها ذلك من نجاح .

عباس محمود العقاد

---

(١) كانت مدة السجن من ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٠ الى ٨ يوليه سنة ١٩٣١

الى قره ميدان

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثـم احتوانـا البناء المخفور الذي يعرف في مصلحة السجون باسم«سجن مصر العمومي» ويعرف على ألسنة الناس باسم « قره ميدان » أي الميدان الأسود باللغـة التركية !

وخطر لي ـ وأنا أخطو الخطوة الأولى في أرض السجن ـ قـول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخولي باليقين بلا امتراء   وكل الشك في أمر الخروج

فهو تقرير فلسفي صحيح للواقع !..

أما الدخول فها هو ذا يقين لا شك فيه ، وأما الشك كل الشك فهو في أمر الخروج متى يكون والى أين يكون ؟ أإلى رجعة قريبة ، من السجن واليه ؟ أم الى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم الى عالم الأموات ؟

في تلك اللحظة عاهدت نفسي لئن خرجت الى عالم الحياة لتكونن زيارتي الأولى الى عالم الأموات ، أو الى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك ـ أي ضريح سعد زغلول .

* * *

ولم تقع مني هذه الرحلة بين الدار والسجن موقع المفاجأة ، لأنني كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذي ينتهي بافراج سريع ، ولكنني كنت لا أرى فرقا بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها في الحبس بحكم القضاء ، لأنني كنت أقدر أن

حبس التحقيق — وان قصر — كاف لأن يصيبني بأكبر الضرر الذي يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التي لا تزول •

وعلى توقعي الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علي بمـا يؤكد ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبأ اليقين في هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، وقد لقيني مرة فاستوقفني وقال لي : « حذار يا أستاذ ! » فقلت له باسما : « لا يغني الحذر من القدر ! » قال لي : « اني أروي لك ما أعلم لا ما أظن : ان مقالاتك تراجع في بعض الدوائـر مراجعة خاصة ، وانهم ينتظرون يوما معينا ربما كتبت فيه ما يساعد عـلى تأييد التهمة ، ثم يقدمونك الى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمـة وحديثة ! »

وكان في نيتي أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ الى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر في مؤتمر المجالس النيابية الذي عقد تلك السنة في العاصمة الانجليزية ، وقد استخرجت جواز السفر السياسي ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الاوربية التي كنت أنوي زيارتها ، ولم يبق الا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق باخواننا الذين سبقونا الى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية ، ثم بدا لي أنني اذا سافرت فقد أمهد بيدي وسيلة لنفيي في أوربا سنوات بلا عمل ، ولا قدرة على البقاء في ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منع عودتي أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهي بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها • فعدلت عن السفر في اللحظة الاخيرة ، وقلت ان السجن أحب من النفي الذي لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا الحياة !

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنـا وحدي بالمنزل ، لأن أخي كان معتقلا في قضية « البلطة » المشهورة متهما بالتآمر على حياة رئيس الوزارة ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فاذا ضابط في رتبة « اليوزباشي » على ما أذكر يبادرني بالسؤال :

ــ هل حضرتك فلان ؟

ــ قلت نعم ٠

فمد الي ورقة من دفتر في يده على هيئة ذكرتني الكونت نيمور وهو يلقي القفاز في محضر لويس الحادي عشر ٠

قلت : « تفضل أولا فاجلس » ٠

فتردد في الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومي للحضور الى مكتبه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، ووقعت على الدفتر ــ كما طلب الضابط ــ بأنني تسلمت الورقة ٠ وأخذت في اعداد الكتب التي سأقرأها في السجن ، والادوية التي أتعاطاها ، والملابس البيتية التي أحتاج اليها هناك ٠ وزدت فأعددت الاغطية الصوفية التي تلزمني للفراش والغطاء ٠ لأنني كنت حتى تلك الساعة أجهل « تقاليد السجون » وأظن أن الاغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة اثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق المحاكمة ٠ ثم حضر الطاهي فأريته هذه الاشياء كلها وقلت له : انه سيحضرها لـي في السجن غدا عند اللزوم ٠

فظهر لي أنه لم يفهم ، وأنه ينوي أن يقصد بها سجن الاجانب الذي كان أخي معتقلا فيه ٠

فقلت له : « بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه غدا بدار النيابة ! ! » ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ « أحمد » أنه ليس باليسير !

وذهبت في الموعد المحدود الـى دار النيابة ٠ واستغرق التحقيق ساعات ٠ ثم قال لي حضرة المحقق : « انني آسف لأننا سنضطر الى ابقائك عندنا قليلا يا استاذ ! » وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين الى « الحيطة الصحية » الواجبة في هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذي يوافقني أثناء الحبس « الاحتياطي » أكثر من سواه ٠

وكان الاساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا سجون القاهرة التي تردد عليهـا في سنوات الثورة السياسية معظـم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن الـى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمين والموكلين ، واستحسنوا أن يكون الحبس في « سجن مصر » لأن الجو فيه أوفق لي من سجن الاستئناف . وقد كان .

فذهبت مع الضابط والجند في سيارة خاصة الى « قره ميدان » وتخطيت الباب فاذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بي الضابط نحو حجرة الكتاب لتسليم ما عندي مـن الودائع وكتابة الاوراق التي لا بد منها لكل مسجون جديد . وما هي الا لحظة حتى توافد الموظفون وكثر دخول السجانين ينظرون الى القادم الذي سرى بينهم نبأ قدومه . وأخذ كاتب هناك مرح ثرثارة يداعبهم واحدا بعد واحد كلما مروا به وتصنعوا سؤاله عما يضمره لهم بريد اليوم . فيقول لأحدهم : « اطمئن ... فقد عينوك مديرا لمصلحة السجون ... » ثـم يحدج ببصره كمن يستغرب سكوته . ويقول له : « ألا تصدق ؟ آه يا ابن الحلال . معذور . فانك في السجن ولست في البيمارستان .. »

أو يقول لغيره : « تعال هنا ... قرب اذنك ! ! قرب أيضا » ... ثم يناديه بصوت يسمعه كـل من في المكان : « افرح ... نقلوك الـى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد ! »

وهكذا في أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت في ذهني موقف هملت وحفاري القبور اذ يغنون وهم في ذمار الموت ! !

الليلة الاولى في السجن

لم يكن مكتب الموظفين الا بمثابة « الاعراف » التي تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها « أعراف » تنقل من النعيم الى الجحيم كما تنقل من الجحيم الى النعيم . وقد كانت في اليوم الذي سجلت فيه اسمي بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للافراج كما يسمونه في لغة السجون !

* * *

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر في هذه المرة لا مع ضابط الشرطة الذي انتهى مقامه عند الباب .

فاتجه الضابط الى عنبر «ب» وفتح الباب الحديدي ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظرا عجيبا لا تألفه العين : أناسا بملابسهم العادية جالسين القرفصاء في صمت لا يلتفت أحدهم يمنة ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الارجل والايدي كما تمشي الدواب يزحفون زحفا ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يجيبونه بصدى ــ لا بكلام ــ يقولون فيه : « هيه هيه » . . . أما المغني فالذي أذكره من انشودته الآن عبارة واحدة : « رايحه له فين ! ده عليه سنتين ! »

فقلت فأل جميل وايم الله ! وللفأل شأن كبير في « نفسيات » المسجونين كما سيرى القراء في بعض هذه الذكريات .

* * *

وكان لا بد لي من « فرجيل » يصاحبني كما صاحب الشاعر الايطالي

« دانتي » في طبقات الجحيم ليدله على أنواع العذاب ودرجات المعذبين • فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء ؟ ومن هؤلاء المكبون على أربع ؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوبات ؟ وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم بين المعمم والمطربش ولابس « الطاقية » ، ولا يلبسون كأهل السجون ؟

على أنني لم ألبث طويلا حتى عثرت على الدليل الذي ينوب في جحيمنا عن فرجيل !

فقد كان على يسار الحجرة التي خصصت لي حجرة للصحفي الظريف علي أفندي شاهين رحمه الله • وكان محبوسا رهن المحاكمة في قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم اسماعيل صدقي باشا كبير الوزراء في تلك الايام • وكان واقفا عند باب حجرته ينتظرني بعد أن سبقت البشائر الى العنبر بقدومي ! ! فلقيني مرحبا • وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولاق « دائرتي الانتخابية » كانوا في مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيونني ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضباط والسجانين فعادوا جالسين •

وعلمت بعد ذلك بهنيهة ان هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبوسون على ذمة التحقيق ممن آثروا البقاء بملابسهم العادية • وانهم جلسوا تلك الساعة في انتظار الخروج « للطابور » الذي هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم • وللمحبوسين شوق الى موعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الاصيل على شاطىء النيل وطريق الاهرام !

أما المكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه • وهم يتغيرون كل شهر مرة ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الاخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون في الحجرات •

* * *

قال دليلي أو « فرجيلي » بعد الشرح المتقدم : « وان هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبي يوسف عليه السلام » .

قلت : « وما ذاك أفادك الله ! »

قال : « لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلي طعامه ويقصر أيامه » فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان .

قلت : « يخيل الي أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامه ولم يقل غزر ترابه ... لأن السجعة تقضي بذلك » !

وما لبثت في السجن نصف ساعة حتى رأيت بعيني حرص الاقدار على اجابة ذلك الدعاء ، فما هو الا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر الى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذي تركوه .

* * *

والى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتمامي برعاية المواعيد في تناول الوجبات .

فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهي أو نسي احضاره وفهم غير ما تعبت بالامس في افهامه اياه ؟

هنا ظهرت لي قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير الا بعد أن أسأل السجان ، وبعد أن يسأل السجان الضابط ، وبعد أن يسأل الضابط البواب ، وبعد أن يحال البواب الى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضي في ذلك كله وقت غير قصير .

ولم يكن الذنب في هذه المرة على ذكاء « الشيخ أحمد » كما توهمت لأول وهلة ، فانه قد أحضر الطعام بعد انصرافي من دار النيابة . ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمرا بقبوله وانتظام حضوره ، وحتى يراه الطبيب ويرى الادوية التي معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتي الصحية وما يصلح لي من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش ! !

وفي هذه الاثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التي ينضح بها الاسفلت في أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة الموكل بحجرتي من اعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذي سيغنيني عن غطائي فلم أطمئن اليه كثيرا ، ولكنني قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجسا من هذه النافذة المفتوحة على رأسي يندفع منها الهواء طول ليل الخريف ، فما العمل فيها ؟

قال دليلي أو « فرجيلي » علي أفندي شاهين : « لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها » ، والتفت الى صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض الحجرة كما يصنع في حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة توا ليريني كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين أفندي ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لي : « احمد الله على أنهم لم يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل في سدها بحال من الاحوال ، فضلا عن الظلام المطبق من الصباح الى المساء » .

قلت : « الحمد لله ! »

وهبط ظلام الليل شيئا فشيئا ، وعاد المسجونون قبل ذلك أفواجا الى الحجرات ، وتعالت بينهم ضجة كضجة السوق في يوم زحام ، ثم توالى اغلاق الابواب وادارة المفاتيح في الاقفال ، ثم بدأ « التتميم » أو المراجعة حجرة حجرة :

كم يا ولد ؟ عشرة !

كم يا ولد ؟ أربعة ... وهكذ الى نهاية الدور ، وفي كل عنبر أربعة أدوار ، ولن يبرح السجان دوره حتى يستوثق من مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب في سجله المعلق عند الباب .

وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن يسمع الا

أسماء تتقاذف بها أفواه رجال ونساء ، وصرخات وأهازيج وشتائم هي عندهم في منزلة التحيات المباركات ! ثم سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ، وشرع اثنان في قافية من القوافي المعروفة في محافل الاعراس والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفي الطارىء على السجن في تلك الليلة فجعلا للصحافة قسما من هذه المساجلات المحفوظة :

ـ الاولاد تنادي وراك وتقول

ـ ايش معنى

ـ المؤيد ! المؤيد ... وهو يعني « المقيد » .

* * *

ـ فوق راسك يا معلم علي

ـ ايش معنى

ـ المقطم !

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع في حضن جبل المقطم .

* * *

ـ الرغيف في سقف بيتكم

ـ ايش معنى

ـ كوكب !

* * *

ـ تطلع من هنا تقابلك في البيت

ـ ايش معنى

ـ الحماره !

وقس على ذلك ما يقال ، وما يسمع كرها ولا يقال .

أما أنا فقد أظلمت الحجرة عندي ظلامين ، لأن النافذة المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل الى الحجرات من فناء السجن المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا سلة الطعام في ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الاصوات تخفت وتخفت حتى انقطعت أو كادت في نحـــو الساعة التاسعة كما أنبأتني الساعة العربية التي تدق في مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع الا وقع أقدام الحراس على البلاط ، والا صيحاتهم كل نصف ساعة يطيلونها ويتنافسون في اطالتها . فذكرتني مبيت ليلة على حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب .

* * *

التهريب

تقدمت في علم السجن بعد يوم واحد خطوات سريعات ، وعلمت مركز الدور الذي أنا فيه ــ وهو الدور الخامس ــ بين أدوار السجن عامة ، وعلمت ما له من الشرف والوجاهة المرموقة في تلك المدينة الصغيرة التي يسكنها نحو أربعة آلاف ، فانه هو محور حركة التهريب والحيل والمناورات .

وليس التهريب في السجون بالشيء الهين ولا بالمطلب اليسير ، لأنه هـو الدفاع الوحيد الذي ينتقم به المسجونون مـن الاسوار والقيود والحراس ، وهو فسحة الحرية الباقية لمـن فقدوا الحرية . فعليه وحده تنصب جميع الجهود والحيل والخبائث . وله وحده تجارة واسعة النطاق تجري على معاملات خاصة ولغة خاصة ومواصلات خاصة ، لا يكفي للعلم بها يوم واحد . ولكن لا يمضي يوم واحد على السجين حتى يأخذ في العلم ببعضها ، ثم لا يزال في الافتنان والمزيد ما شاء الله أن يهبه من سعة الفهم والنبـوغ !

والتبغ والحلوى هما عماد المهربات جميعا في السجون ، وهما السلعة التي يغالي بأثمانها من يطلبونها هناك حتى يبلغ ثمن اللفيفة الواحدة خمسة قروش . وثمن عود الثقاب قرشا أو أكثر ، وثمن القطعة « من الحلاوة الطحينية » كثمن اللفيفة من التبغ وربما زاد عليها في بعض الاحيان .

ولكل سلعة من السلع المهربة ، بل لكل شيء من الاشياء التي يتصل بها السجناء رمز من الرموز ، يعرفه كل من في السجن ولكنهم لا يزالون

مصطلحين عليه بعد انكشاف سره وافتضاح صفره . فالحارس يعلم أن « الزمارة » هي اللفيفة ، وأن « العين » هي النار من ثقاب أو غير ثقاب ، وأن « العربة » هـي الحارس نفسه ، وأن السجين الذي يقول لزميله : « حاسب العربة فايتة » انما يعني أن الحارس في الطريق . ولكن السجناء مع هذا قد ألفوا الكناية والتخفي والزوغان فنسوا الكلمات الواضحة وصمدوا على هذه المصطلحات والرموز .

والدور الخامس فيه سجناء المحاكم المختلطة أو « الحمايات » كما يسمونهم هناك . وهم مميزون بطعام غير طعام السجن يشتمل على الخضر واللحم والفاكهة والحلوى كل يوم ، ولهم في الافطار كوب كبير من الشاي وبيضتان . وفي المساء جبن أو مـا شابهه من طعـام محرم على سائر المسجونين .

وفي الدور الخامس قسم آخر من سكان السجن المجدودين في نظر الزملاء الآخرين ، وهو قسم المحبوسين على ذمة التحقيق الذين يسمح لهم « النظام » بالطعام واللباس من المنازل ، فيصل اليهم كل يوم دجاج ولحوم وخضر مطبوخة وفاكهة وحلوى وألوان من « الثمرات » المحرمة المشتهاة في ذلك الجحيم .

وهؤلاء يشتاقون « التبـغ » ان كانوا مـن المدخنين فيجدون في « العنبر » من يشتاقون الحلوى واللحوم ويملكون اللفائف أو «الزمامير» للبيع والمقايضة ، فتنعقد الصفقات وتظهر البراعة والافتنان في التوصيل والتسليـم .

على أن البيع لا يجري كله بالمقايضة ولا غنى فيه عن « النقد » في كثير من الاحيان ، أما حمل النقد فممنوع في نظام السجن ولكن هل يمنع بلع النقد واحتواؤه في الاجواف ؟ هيهات ! ومن هنا كانت العملة المختارة في السجن هي قطعة القرشين الفضية وقطعة « نصف الجنيه » الذهبية ، وما عدا ذلك من القطع فهو شذوذ يتوقف عليه شذوذ المعدات والامعاء ،

ومنها ما تصل طاقته في الشذوذ الى ربع ريال ، وقد تزيد على ما يقال !

* * *

ولم تمض علي ليلة في السجن حتى عرف الخبثاء المتربصون أن هناك فرصة للاستغلال لا ينبغي أن تضيع ، فاستغلوا جهلي بكل ما استطاعوا من وسيلة وحيلة ، وكانوا موفقين كل التوفيق .

جاءني خادم الحجرة في الصباح الاول بعد الافطار وأنا لا أعلم بطبيعة الحال شيئا عن المحظورات والمباحات وأولها اعطاء الطعام والفاكهة لخدام الحجرات ، فأعطيته كل ما بقي من الموز والفاكهة في السلة ، ففرح بها وتهلل وجهه وأسرع فخبأ بعضها تحت لبدته ولف بعضها في سرواله ، وتسلل من الحجرة الى حيث لا أعلم . فأدهشني أنه لم يأكل ما أعطيت وظننت أنه يخفيه عن أصحابه حتى ينفرد بأكله في ناحية ، ولكني عرفت بعد ذلك أنه باع معظمه بزمارة ! ! وقنع منه بأكل القليل .

وجاءني بعد ذلك فسألني :

ــ هل تعبت كثيرا من البق والبراغيث ؟

قلت :

ــ كلا ! لم أشعر لها بوجود .

قال :

ــ لكن هذه « الملاعين » ستظهر قريبا عندما تشم « نفس الناس » وتزعجك كثيرا ، ومن العجيب أنها لم تظهر أمس والحجرة مهجورة والاغطية مخزونة ، فلا بد من تطهير السرير وحدائد النافذة والباب للقضاء عليها ...

وطفق الخبيث يهول لي في فتك هذه الحشرات وألاعيبها في الاختفاء والظهور كأنها تحاور السجناء وتلاعبهم لعبة «الاستخفاء» عن عمد وتدبير .

وخشيت أن يكون ما قال حقا ، لأن المزعجات كلها مسلطة على السجناء في اليقظة والرقاد .

فقلت :

ـ وكيف نقضي عليها ونستريح منها ؟

قال :

ـ بالنار ، اطلب سعادتك موقد الغاز من السجان وهو لا يضن به على مثلك ، وقل له انك تريده لتطهير الحجرة من البق والبراغيث .

فشكرت له اخلاصه ، وانتظرت حتى جاءني السجان فطلبت منه « الموقد » وذكرت له الغرض منه ، فلم يضن به كما قال الرجل . بيد أني علمت بعد لحظات قليلة حقيقة ذلك الاخلاص الذي شكرت صاحبنا عليه !

فما هو الا أن تسلم الموقد مشعلا حتى أسرع قبل كل شيء فأشعل منه لفة من خيوط الصوف ونظر الى الدور الاعلى ـ وهو الدور السادس ـ فاذا بلبدة تسقط على مقربة منه كأنها سقطت عفوا بغير طلب ، واذا به يدس فيها اللفة المشعلة ويطويها طيا محكما ويقذف بها حيث سقطت ، وهو يقول في صوت بين الهمس والنداء : « خذ التليفون ؟ »

والتليفون كما علمت بعد ذلك هو الخيط المهرب على هذا المنوال لاشعال الزمامير !

قلت : « يا شيطان ؟ أهذا هو البق الذي تريد احراقه »

فحاول أن يتمادى في الكتمان والزوغان . ولكنه ضحك على الرغم منه وأفصح لي بسر هذه « التهريبة » التي كانوا لا يظفرون بها الا في الفلتات . وقال لي انهم كثيرا ما يشعلون خيط الصوف على طريقة قدح الزناد ، ثم يقذفون به في الحجرة المجاورة فيتلقاه أحد السجناء على ذراعه الممدودة خارج « شعاع » الباب ثم يلقي به الى جاره حتى يدور في الدور كله . ولذلك سموا هذا الخيط بالتليفون !

* * *

وماذا يصنع المدخن الذي يود التدخين لا محالة ومعدته خاوية من « ذات القرشين » أو من الزرار كما يسمون تلك القطعة في لغة الاصطلاح ؟

أتراه يقلع عن تلك العادة ؟ كلا ذلك آخر ما يفكر فيه ، بل ذلك حديث لا يفكر فيه آخرا ولا أولا فيما يظهر . وانما يعتمد على الثقة ومعاملات القرض والتسليف حتى يفرجها الله . وإنها لمعاملات معترف بها تسري بين السجناء سريانها بين الطلقاء . فلكل سجين « حسابه الجاري » الذي يليق بسمعته المالية وكفاءته « السجنية » . وهي على نقيض الكفاءة التي توجب الثقة في معاملات المصارف والمتاجر الخارجية . لأن أسوأ الناس سلوكا وأطولهم اقامة في السجن هو أحقهم بزيادة الاعتماد وحسن السمعة . وأما البريء أو المحكوم عليه في أمر يسير فذلك في حكم المفلس المعدم الذي لا يوثق به في التسليف من هنا الى هناك !

ولا أزال أذكر صرخة الفزع التي سمعتها من أحد تجار التبغ المشهورين حين أبلغوه أن مدينه « فلانا » قد بريء في محكمة الاستئناف بعد أن كان ميئوسا من براءته وكان هو أول اليائسين المتفائلين ببقائه ... فقد صاح التاجر فيمن أبلغوه شامتين مستهزئين : « ويحكم ماذا تقولون ؟ هل برأوه النذل الوضيع ؟ » ثم عاد فاستسلم وأناب وقال لمن حوله وكأنه يحدث نفسه : « ولكن الحق علي أنا المغفل الذي أثق بمثل هذا الكاركي الحقير ! » وكان الاولى به أن يقول : « هذا البريء الحقير » بدلا من كلمة الكاركي التي هي عندهم اصطلاح على من دخل السجن محكوما عليه لأول مرة . ولعلهم أخذوها من كلمة « الكاكي » الذي يشبه لونه لون العلامة الموضوعة على لبدة هذه الفئة من فئات المسجونين .

وربما تبادر الى الذهن أن ديون السجن عرضة للغدر والاهتضام اذ كان صاحبها لا يجسر على المطالبة بها خشية العقاب اذا هو أقر على نفسه بالتهريب والاتجار بالمحظورات ، ولكن الحقيقة أن ديون السجن كديون الشرف عند جماعة المقامرين هي أحق الديون بالضياع وهي مع ذلك أبعد الديون عن الضياع . ولا شك أن الدائن يستميت في رد حقه على قدر حاجته الى الاستماتة والمجازفة . وهو يحتاج الى الاستماتة والمجازفة كلما

قل اعتماده على المطالبة المشروعة والاصول المتفق عليها • فيذهب في طلب الدين المهرب الى أقصى حدود العنف والارهاب ، ويلقي في روع غريمه أن رد المال أهون من الاصابة التي لا مفر منها اذا هو تذرع بالغدر والمحال • وربما استنكر «الرأي العام» بين هؤلاء اللصوص أن يأكل المدين مال الدائن في غيابة السجون ، وهم جميعا لا يستنكرون الخطف والسطو والاختلاس في فضاء الله الرحيب • لأنهم يحتاجون في السجن الى تجارة المهربات ويعلمون انها تجارة قوامها الثقة والسداد ، وان كان هذا لا يمنعهم ان يعجبوا « بالشاطر » الناجح الذي يستدين ثم يتمكن من الزوغان !

ومن هؤلاء الاشقياء من يعجز عن معاملة التسليف فيهجم على التزييف وهو يتوقع ما وراءه من الخطر والعقوبة القاصمة •

رأيت من هؤلاء اثنين جاء بهما أحد السجانين الى مكتب السجان الاول في انتظار عرضهما على حضرة المأمور • وكنت أجلس أثناء الرياضة في فناء السجن بين المكتبين المتقابلين •

فبسط لي السجان المصاحب لهما يده وقال : « انظر ! هذا من تزييف هؤلاء المجرمين » وعد أمامي ثماني عشرة قطعة من ذات القرشين صنعها ذانك السجينان في المعمل واتقنا صنعها جد الاتقان ، مع السرعة وقلة الادوات وشدة الحذر من الرقباء ، فلا تختلف القطعة الصحيحة الا بالرنين وهو محك مأمون في داخل السجون ، ومن ذا الذي « يرن » الزرار في لحظة التهريب ؟ فالشياطين يعلمون أن صاحب البضاعة سرعان ما يتناول القطعة بيده حتى يقذف بها الى معدته ، ثم يختلط الصحيح بالزائف في ذلك الكيس الحي وتختفي الشبهة باختفاء القطعة بين أحشاء التاجر المخدوع •

قال أحدهما لصاحبه : « فيها خمس سنوات يا فلان »

فاضطرب صاحبه • وقال : « قسمة ونصيب ••• وكل هذا من أجل نفسين لا طلعا ولا نزلا »

ثم التفت نحوي كالمستغيث سائلا :

أصحيح أن الحكاية فيها خمس سنوات ؟
قلت :
ــ لا أظن .

فنظر الي الاول نظرة يتنازعها ادعاء العلم بأحوال السجون ولهفة الخلاص . وقال لي كأنه يتحدى ويستزيد من الاطمئنان في وقت واحد :

ــ وكيف هذا وقد رأيت بعيني جماعة عوقبوا بالسجن خمس سنوات لأنهم زيفوا النقود ؟

فطاب لي أن أداعب مهارة هذين الشيطانين وأخذت أشرح لهما ما أعتقد من الفارق بين التزييف في الخارج والتزييف في داخل السجن ، وقلت لهما ان المزيف في الخارج يختلس حق الحكومة وحق الناس ، ولكن المزيف هنا يختلس ما هو مختلس بطبيعته ومستحق للمصادرة عند ضبطه ، وليس على هذا عقوبة أكثر من عشرين أو ثلاثين جلدة ، وأيام أو أسابيع من سجن الانفراد والخبز القفار .

قال :

ــ لتكن مائة جلدة ، وانطلق يدعو لي بالطمأنينة وارتقاء المراتب والصحة والعافية وكل شيء ...
قلت :

ــ هداك الله يا صاح . ولكن هذه الدعوات الصالحات هل تراها « عملة صحيحة » عند صيارفة السماء ؟ !

القـــراءة

يسمح النظام في « قره ميدان » بالقراءة للمحجوزين على ذمــة التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط ، وتنحصر القراءة المسموح بها في الكتب الدينية والعلمية والادبية التي « لا تخـل بالنظام » مـا عدا الروايات وكتب التسلية ، ويرجع الامر في التفريق بين مـا هو جـائز من المقروءات وما هو محظور الى رأي الموظف « الكتابي » الذي يتفق وجوده ساعة وصول الكتاب ، لأن الموظفين العسكريين يترفعون عن الخوض في هذه المسائل « الملكية » ولا يشعرون بغضاضة على أنفسهم من القائها على كاهل حملة الاقلام ، ولكن ما الحكم في اللغات التي لا يعرفها الموظف الحاضر ؟ وما الحكم في الروايات التي هي من صميم الادب ؟ وما الحكم في الكتب التي لا يلوح عليها أنها روايات الا لمن قرأها وأحاط بتراجم أصحابها ؟ وما الحكم فيما يخالف النظام من التصانيف اذا كان المراقب الفاضل لم يسمع قط باسم كارل ماركس ولا كروبتكين ، ولا مانع عنده من إجازة كل تأليف لاخوان هذا الطراز ؟

الحكم في ذلك كله للمصادفة والمزاج ، فكثيرا مـا يتوغل في السجن من أجل هذا كتاب يقشعر له بدن النظام الاجتماعي وكل نظام في الوجود ، وكثيرا ما ينتظر الكتاب الاذن بعبور الجدران أياما وأسابيع حتى يرسل الى الادارة العامة ويعثر هناك على مـن يعرف الالمانية أو الاوردية أو الارمنية وما شابهها اذا كان مكتوبا باحدى هذه اللغات .

وقد وقع اختياري عندما وصل الي اعلان دعوة التحقيق على كتابين

في التاريخ والادب ، وهما الطبعة الجديدة من مختصر تاريخ العالم للمصلح الانجليزي « هـ • ج • ولز » ، وسيرة بيرون للكاتب الفرنسي « اندريه موروا » مترجمة الى الانجليزية ، فأفردتهما جانبا ووضعت علامات على الكتب الاخرى التي سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين •

ولم يكن اختيارا في الحقيقة ذلك الذي هداني الى اختصاص تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة في أيام السجن الاولى ، ولكن الكتابين كانا قد وصلا الي في البريد الاخير فوجدت الفرصة سانحة للفراغ منهما في هذه العزلة المقسورة !

على أنني لو تعمدت الاختيار المناسب « لمقتضى الحال » كما يقولون لما اخترت غير كتابين من هذا الباب وعلى هذه الوتيرة ، فليس أحب الى الانسان من أن يعوض حركة الجسم اذا فقدها بحركة الخيال ، وليس أقرب الى المعقول من أن يلتمس في عالم القراءة ما يعز عليه في عالم الواقع ، وأي قراءة أليق بالسجين على هذا الاعتبار من تاريخ يصاحب به حركة الانسانية بأسرها من بداية نشأتها ومن قبل نشأتها الى يومها الحاضر ؟ أو من سيرة رجل قضى حياته كلها جامحا بين رحلات الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوى والمغامرة ؟

فقد أحسن القدر الاختيار لي فيما أرى ! ومن قبل ذلك بأعوام أذكر أنني كنت أنتقي ما أقرأ وأنا مريض يائس من الشفاء ، فكانت يدي تتجه الى نوعين من الكتب بينهما مسافة بعيدة من الاختلاف في الموضوع والوجهة ، وأعني بهما الكتب التي تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية والكتب التي فيها بحث عما وراء الطبيعة واستكناه لحقائق الارواح وعالم الغيب ، وما أشد الاختلاف بين الموضوعين ؟ وما أبعد المسافة بين النوعين ؟ ولكن الصلة التي تجمع بينهما أقرب الجمع بعد ذلك هي « التعويض » النفسي الذي يشتركان فيه ، فكلاهما كفيل بتعويض المريض الذي يحس من نفسه انه سيفقد الحياة ، وانما يعوضانه في عالم الخيال والتفكير ، لأن

حياته الواقعية تريه مقدار الحاجة الى عالم الحس كما تريه مقدار الحاجة الى عالم الروح .

* * *

على أنني لم ألبث أن عرفت أن للكتاب في السجن فائدة غير فائدة القراءة ، وربما كانت فائدته الاخرى هي المقصودة في كثير من الاحيان عند كثير من المسجونين ، ولا سيما المصاحف وكتب الدين على اختلاف الاديان .

أما هذه الفائدة الاخرى فهي الاستخارة ! وهي أن يفتح القارىء الكتاب على الصفحة اليمنى ثم يعد سبعة أسطر ويقرأ ما يصادفه في السطر السابع ، فاذا هو المصير الذي ينتظره و « القرعة » التي تصيبه بغير تدبير ولا مجاملة ولا مداراة . فاذا كان الكتاب مصحفا أو سفرا دينيا كائنا ما كان فذلك اذن أشبه بالوحي السماوي وصوت النذير من عند الله .

ولا أظن أحدا من القراء لم يسمع قائلا يقول في دهشة وغضب : « أتريد أن أغالط نفسي ؟ ... » كأن مغالطة النفس أبعد الاشياء ! وكأن الانسان لا يغالطه الا الآخرون ولا يغالط هو الا الآخرين .

ولكن ساعة من ساعات الضيق الشديد أو الحزن الشديد أو اللهفة الشديدة لتُرِين الانسان — كل انسان — أن المغالطة الكبرى انما تكون من جانب النفس لا من جانب الخادعين بين الاصدقاء والاعداء ، فهو يصدق الرجاء أو العزاء لأنه يحتاج الى تصديقه ، لا لأنه يقيم البرهان عليه ويتبين الوقائع التي ترجحه وتقويه ، والمقياس الوحيد لصدق العزاء في ساعة الضيق انه ضروري لازم لا أنه صحيح معزز بالبرهان ، ولهذا يغتبط المسجونون بالبشارة التي تأتي من الاستخارة كأنها خبر وثيق لا كذب فيه ، بل يغتبطون بها لأنها خبر لا يضير فيه الكذب ما دام يسر ، ولا يفتقر الى تمحيص الغد ما دام مقبولا في حينه .

وقد كان بعض المسجونين الذين يلقونني عند الحلاق ويرونني في

غفلة مـن الحراس يحدثونني ببشائر « الاستخارة » والاحلام كأنهـم يتحدثون « بالاسانيد » والبينات ، فأشكر لهم مودتهم ولا أحب أن أزعزع فيهم ركنا من أركان العزاء ، وما أوهى أركان العزاء جميعا عند بنـي الانسان !

كان باب الحجرة عندي مفتوحا للتنظيف في صباح يوم ، فجاءني زميلي ودليلي وجاري السيد علي شاهين يحمل مصحفه ويعلمني هـذه الفائدة الجديدة من فوائد الكتب بين جدران السجون ، ومن المصادفات المدهشة أنه أخذ في الاستخارة لنفسه وانفتحت له احدى الصفحات اليمنى من سورة يوسف فقرأ في السطر السابع : « ... سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني »

فانتفض صاحبنا كأنما سمع الحكم بالسجن يتلى عليه ! وحق له أن ينتفض لأن المصادفة في الحقيقة كانت من المدهشات التي قلما تتفق في هذه الاستخارات ، اذ ليس في المصحف كله آية تناسب استخارة السجين الذي سيحكم عليه كما تناسبها هذه الآية . ولكن ما أعمق معين المغالطة في نفس الانسان كلما احتاج الى الرجاء والعزاء ! . فان صاحبنا لم يقف عند السطر السابع بل زعم أن أصول الاستخارة تقضي بمتابعة المعنى الى تمامه ، وجعل يقرأ ويقرأ حتى وصل في ختام الصفحة التالية الـى الآية التـي تقول : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم »

وكنت أقلب في كتاب « تاريخ العالم » فقال لـي صاحبي : « ألا تستخير عندك ؟ »

قلت : « وهل تصلح الكتب الافرنجية للاستخارة ؟ »

قال : « جرب ! »

ولا أظن شيئا يبعث الاسى على تاريخ بني الانسان المساكين كمـا تبعثه الاستخارة في كتاب تاريخ عام . فما أذكر أننا وقفنا على سطر الا وكان فيه عراك أو نكبة أو معنى محزن ان كان فيه معنى على الاطلاق ،

وفي احدى هذه الاستخارات ظهرت لنا آية قرآنية مترجمة علمت موضعها بقلم رصاص كان مع السيد علي شاهين، ولم أكن أنا أحمل قلما ولا رضيت أن يحمل الي شيء من المهربات ، فاذا السطر السابع منها هكذا :

Grieve at what had escaped you, nor at what befell you; and (Allah is aware of what you do)

وتمام هذه الآية من القرآن في سورة آل عمران : « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على مـا فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بمـا تعملون ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ••• »

* * *

وفي اليوم التالي لدخولي السجن أبلغت أن المصلحة ترخص لي في شراء الصحف التي أريدها على حسابي ، فتعبنا جدا في احضار صحف المساء قبل الغروب واغلاق الحجرات ـ وهي توزع في ميدان القلعة نحو الساعة الرابعة ـ لأن البائع الخبيث علم أن هذه النسخ « مضمونة البيع » فالاولى به اذن أن يبدأ ببيع النسخ « غير المضمونة » ! ! ولم يشأ من أجل هذا أن يحضر الى السجن وفي ضوء النهار بقية ، وأصر على ذلك مع تنبيهه مرة بعد أخرى ، وان كان هذا لا يمنعه أن يلقاني بالدعاء والابتهـال كلما خرجت من السجن وكلما عدت اليه في طريق التحقيق والمحاكمة !

وربما علم بعض حضرات القراء أنني شرعت في أيام سجني أتعلم اللغة الفرنسية ، وهي مصادفة من المصادفات أيضا لم تكن تجول في نيتي عندما دخلت السجن واخترت كتب القراءة التي تقدمت الاشارة اليها ، وانما فكرت في ذلك على أثر تحية وجيزة لقيتها من رجل ايطالي مهاجر وضعوه في الحبس ريثما يتثبتون من « جنسيته » في الوكالة الايطالية • فقد اقترب مني هذا الرجل يوما ورفع قبعته محييا وهو يقول بالفرنسية : « يا حضرة النائب •• » ثم شفع ذلك بكلام كل ما فهمته منه يومئذ أنه

قرأ أخبار قضيتي وأنه يسره أن يراني ويبلغني تحياته • فحاولت أن أفهمه جوابي بالانجليزية فلم يفهم الا قليلا لا يزيد على ما فهمت منه ! فسألت نفسي : وما بالي لا أتعلم الفرنسية في هذه الفرصة ؟ أمامي الآن نحو خمسة أشهر وهي مدة كافية للالمام بالمبادىء ، ولم يكن وقت التحقيق صالحا للشروع في هذا البرنامج لأنه وقت غير محدود • فلنبدأ الآن فقد عرفنا بعد صدور الحكم بالحبس البسيط مدى ذلك الوقت المحدود •

* * *

وأنت أيها القارىء ـ وقاك الله ـ لا تعلم كما علمت أنا في السجن أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول « قلم » الى حجرة سجين باذن من مصلحة السجون ، فان الترخيص للسجين بحمل القلم يقتضيه كما قيل لي ان يكتب عريضة لادارة السجن ، وأن ترفع هذه العريضة الى مدير المصلحة ، وأن ترفع بعد ذلك الى كل من وزير الداخلية ووزير الحقانية ، وهناك يصدر الامر بالرفض أو القبول اذا شملته رعاية خاصة ، والارجح أن يرفض لغير سبب الا أن الرفض مباح للرئيس وأنه في معظم الاحيان شرط من شروط الرئاسة •

ولم كل هذا العناء ؟

نعم ان القلم ضروري لتعليم الاسطر كما تعودت في دراساتي ومطالعاتي ، ثم تدوين الكلمات التي تراجع وتحفظ ، ولكني استعضت منه بالظفر أحز به العلامة في الهامش وفي خلال السطور ، وبثني الصفحات في مواضع المراجعة والاعادة • واستغنيت عن كتابة العرائض التي يقول فيها جبرائيل لميكائيل وميكائيل لاسرافيل واسرافيل لعزرائيل ، ثم لا ينتهي بعد ذلك الى كثير ولا قليل •

ومن طرائف المقترحات التي سمعتها وأنا أبدأ دروس الفرنسية الاولى أن أدع هذه اللغة وأعد نفسي ـ بدرس الفقه والشريعة والتصوف ـ لأن أكون اماما واعظا في الاقطار الاسلامية ! وأن أفطن للحكمة الالهية التي

قيضت لي محنة السجن كما فطن لها صاحب الاقتراح الملهم بظهر الغيب .

وجعل صاحبي ــ أعني صاحب الاقتراح ــ يسأل ثم يجيب نفسه :

ــ هل تستحق أنت بلاء السجن ؟ لا ولا ريب !

اذن لا يظلم ربك أحدا ! وما أراد ربك بسجنك الا نفعك ونفع المسلمين بك ، وأن لا تكون غاية سعيك خدمة الوطنية المصرية دون الجامعة الاسلامية . فدع الفرنسية واقرأ في الاشهر الباقية كتب التفسير وأصول الدين وتجرد لما جردك له الله ، وثق أنك هنا لأمر عظيم .

وهكذا كان يحاورني من حين الى حين رسول تلك البشارة المغموطة، والهداية التي تخلق الهداة على الرغم منهم ! ورسولنا هــذا هو هندي متورع محبوس في قسم الحمايات لتهمة اختلاس في تجارة كبيرة ينكرها أشد الانكار ، ويزعم أن عداوته للحكومة في الحركة الهندية هي علة تلفيق التهمة عليه ، وكان لا ينقطع عن كتب التفسير والاحاديث يقرأها بالعربية فيفهمها بعض الفهم ولكنه يتكلم الانجليزية اذا أراد التبسط في الحديث .

وفارق الرجل السجن وفارق مصر وهو بغصة المحسور على ذلك الامام الذي هو واثق انه امام منتظر ، وواثق كذلك أنه قد ضيع بيديه الامامة التي أعده لها القدر ، وما أعجب الجمع بين الثقتين !

المنع والترخيص

كل شيء في السجن ممنوع حتى يصدر الامر باباحته والغاء منعه .

فالاصل في السجن « المنع » لغير سبب وبغير تفسير ، فاذا أبيح عمل من الاعمال وأجيز أمر من الامور ، فذاك الذي يحتاج الى سبب ويحتاج بعد ذلك الى ترخيص واستئذان .

وان هذه القاعدة وحدهـا لكافية لأن تجعل السجن سجونا كثيرة بعضها أضيق وأثقل من بعض . ولكنها مع ذلك رحمة سماوية اذا قيست الى الطريقة التي ينفذونها بها حرفا حرفا ومرة مرة ، بغير تصرف ولا قياس ولا مراعاة للنظائر والمناسبات .

فاذا أبيح الشيء مرة فانما يباح في حالة لا تسري الى غيرها وفي وقت لا يمتد الى ما بعده ، فلا يمكن أن تتكرر الاباحة ولو تكررت الدواعي والمناسبات ، ولا يمكن أن يباح الشيء الذي يشبهه تمام المشابهة ويجري مجراه في وصفه وفحواه ذهابا مع القياس والاستطراد . كلا ! بل كل شيء مباح بحرفه ووسمه ووقته وشخص المقصود بـه ، فاذا تغير الحرف أو الوسم أو الوقت أو الشخص فقد بطلت الاباحة وعاد المنع كما كان !

وبعض الامثلة غني عن الاسهاب في هذا الباب .

كان قوام طعامي خارج السجن الفاكهة والخضار الطازج ولا سيما في الصباح والمساء ، وقد ميزت من الخضار الجرجير والخس ، ومن الفاكهة الكمثرى الايطالية والجوافة ، لأن هذه الفاكهة تشتمل على خلايا وبذور تساعد الهضم بخشونتها مساعدة لا تقوم بها الثمار الاخرى .

فأما الفاكهة فقد فصلت فيها مصلحة السجون من قديم عهدها الأول فصل أنبياء بني اسرائيل في المباح والمحظور من الطعام والشراب • فهذا حلال وهذا حرام ، ولا نقض بعد ذلك ولا ابرام • وليست الكمثرى مما يسمح به ذلك « الحاخام » ، أما الجوافة فلم يحن أوانها من العام !

واختلف الحال في الخضار فلم يتنزل في أمره تحريم كذلك التحريم بين آيات الكتاب العظيم ، ولكن كهان الهيكل قد حجروا على ما أباح الكتاب واسعا فلبث « المنع » الاصيل في مكانه القديم لا يتراجع عنه ولا يريم !

كتبت اللجنة الطبية التي تقرر لي أصناف طعامي كل أسبوعين هذه العبارة في تذكرتي الصحية : « يصرف له خضار كالفجل والجرجير •• »

فمضت أيام وأنا لا أرى غير الفجل في كل غداء ، والفجل ، وقاك الله ، صنف يحتمله الهضم الضعيف يوما ثم لا بد له من أسبوع على الاقل لينساه ويجازف مرة أخرى بالرجوع اليه • فأما الفجل وحده ولا خضار غيره مطبوخا أو نيئا في كل غداء فذاك بلاء للهضم الضعيف وليس بغذاء أو دواء !

قلت : « فأين الجرجير ؟ »

قالوا : « ان الساعي الذي يذهب في طلب هذه الاصناف لا يجده في السوق ولا يسعه أن ينتظره حتى يعبر به الباعة في الطريق » •

قلت : « وما باله لا يشتري الخس مثلا أو الكراث ؟ »

قالوا : « ان اللجنة الطبية لم تسمح بغير الفجل والجرجير ! »

قلت : « بل سمحت بكل خضار لأنها لم تذكر الفجل والجرجير الا على سبيل التمثيل » •

قالوا : « لا بد من سؤالها والاستئذان منها ، لانها لو شاءت لذكرت أسماء الاصناف الاخرى ولم تقصر الاشارة على هذين الصنفين » •

وبديه أن السجن مدرسه كما يقولون ، ولكنه ليس بالمدرسة التي

ألقي فيها درسا في معنى التمثيل بالكاف أو في معنى التخصيص والتعميم !

* * *

وسمحت لي اللجنة باللبن في طعام الافطار فكأنها قد سمحت لـي بكوب فارغ لا شيء فيه ، لأن اللبن الذي يصل الي في الصباح الباكر لا يكون صالحا للغذاء ، ولا ينبغي أن يصلح لغير الاهراق قبل ذلك بساعات.

وبيان ذلك أن اللبن الذي يجلبه المتعهد الى مستشفى السجن انما « يسلم » في الساعة العاشرة من كل صباح .

والساعة العاشرة موعد حسن لمن يتناولون اللبن في الغداء ، وموعد لا بأس به لمن يتناولونه في العشاء ، على شريطة أن يكون محلوبا في صباح يومه ولا يكون « بائتا » متخلفا من اليوم الذي قبله .

فأما في طعام الافطار فأين هو المستشفى الذي يطعم مرضاه لبنا مضت عليه أربع وعشرون ساعة في الصيف أو في الشتاء ؟

وخطر لوكيل السجن الذي خاطبته في هذه المسألة عند مروره بي ساعة الرياضة أن « يتصرف » فيها بعض التصرف على خلاف القاعدة المرعية هناك ، فأمر رئيس الممرضين أن يضع المقدار اللازم لـي من اللبن في « الثلاجة » من ساعة وصوله حتى ساعة تقديمه في صباح اليوم التالي ، عسى أن يمنع ذلك فساده وتخثره ويبقيه سائغا سليما حتى موعد الافطار .

لكن رئيس الممرضين ذهب الى المأمور يستأذنه كما هي العادة في كل شيء ، فأنكر المأمور هذا الحل « الهرطقي » لأنه بدعة عجيبة لم يتنزل بها الوحي في « الناموس » القديم ، ووجب أن يهرق اللبن هدرا وأن يلغى الافطار عليه حتى تعود اللجنة الطبية الى فحص جديد .

وليس يخفى أن « النظام » لا يمكن أن يمنع وضع اللبن في ثلاجة المعمل الملحق بالمستشفى أو في أي مكان يحتويه ، ولا يمكن أن يمنع صيانة اللبن من الفساد بغير كلفة ولا نفقة زائدة ما دام الثلج لا ينقطع عن المعمل في صيف ولا شتاء ، بل صيانة اللبن أنفع للمستشفى وأقل نفقة عليه من

شراء لبن جديد لي في الصباح الباكر قبل حضور الاطباء •

ولكن « الناموس » لم ينص بالحرف والوصف على قنينة من اللبن توضع في ثلاجة لأجل سجين يسمى عباس العقاد فهو قد نص اذن على المنع والتحريم ! !

* * *

على أن الاخطر والاغرب في باب الضحك والفكاهة ، لولا ما فيه من مساس بالحياة ، هو قصة انتقالي الى المستشفى أو انتقال المستشفى الي ، ثم ما كان بعد ذلك من فصل حكيم في هذه المشكلة العضال التي ليس لها الا ذكاء سليمان بن داود •

وسيعجب القارىء من « عنوان » هذه القصة كما أسلفته لأنه لن يتخيل أن هناك مشكلة تقوم بين مريض ومستشفى لينتقل المريض الى المستشفى أو ينتقل المستشفى الى المريض •

ولكنه اذا عرف القصة على جليتها لم يستطع أن يتخذ لها عنوانا أصدق من ذلك العنوان ، فهي في الواقع خلاف بيني وبين المستشفى قد انتهى ــ بحكمة سليمانية ــ على أن ينتقل هو الي بدلا من انتقالي أنا اليه•

وجلية القصة أن الاطباء قرروا بعد أيام من دخولي السجن وجوب وضعي في مستشفاه ومعاملتي في اختيار الطعام والفراش وأوقات الرياضة معاملة المرضى •

ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت الى المستشفى كما يقضي العقل و « النظام » ؟

كلا ! وانما الذي حدث أنهم اعتبروا الحجرة التي أنا فيها ملحقة بالمستشفى وانفض الاشكال ! !

وقد أبلغوني ذلك الحل الحكيم فأضحكني على الرغم من مضض السجن وتعب الجسم وسوء العاقبة ، وأصبحت أعذر ذلك العطار الذي حسب أنه استراح من النمل بكتابة كلمة الفلفل على حق السكر ، فان

هذه الحيلة العطارية ليست بأغرب من حيلة السادة المشرفين على السجون الذين كتبوا اسم المستشفى على حجرة العنبر ، فأصبحت بهذه المعجزة السحرية مكانا صالحا للعلاج ، مشرقا بالضياء ، متوهجا بحرارة الشمس ، معزولا من الرطوبة ! ! ولا أحسب الفرق عظيما بين من يحاول تضليل العناصر الطبيعية بكلمة على حق كبير ، ومن يحاول تضليل النمل بكلمة على حق صغير ، فهما ولا ريب في البراعة سواء ..

ولما قلت لهم ان المستشفى فيه حجرة تدخلها الشمس ويتخللها الهواء وتصلح للاقامة فيها قالوا : « وكيف تقيم فيها ؟ أليست فيها دواليب الملابس ؟ »

قلت : « وهل يستحيل نقل هذه الدواليب ؟ أليست صحة مريض أولى بمكان في المستشفى من دولاب ؟ »

فدار البحث أياما بين السجن والادارة العامة والاطباء والنيابة وغيرها من المراجع التي لا أدريها ، ثم ظهر بعد طول البحث وشدة التنقيب أن الدولاب الاصيل أولى بمكانه في المستشفى من الانسان الطارىء الغريب !

وغاية ما صنعوه بعد جهد جهيد أنهم نقلوني من الحجرة الاولى الى حجرة أخرى في طرف العنبر مزيتها على زميلتها أن الشمس تنالها — في الظاهر — من حائطين اثنين بدلا من حائط واحد .

ولما انتقلت اليها واقترحت عليهم أن يفتحوا في الحائط الآخر كوة صغيرة تنفذ منها الشمس الى داخل الحجرة ، حسبت من دهشتهم واستغرابهم أنني طلبت اليهم أن يفتحوا ثلمة في الدين أو ثلمة في نظام الدولة .. سامحني الله !

غير أنهم في هذه الحجرة الجديدة قربوا الشبه بينها وبين المستشفى من وجوه مختلفة غير كتابة العنوان على الباب ، فأغلقوا شعاع الباب بالزجاج وجعلوا للنافذة رتاجا يفتح ويقفل ، ومدوا اليها أسلاك النور الكهربائي الذي لا ينقطع طول الليل عن المستشفى الاصيل ، ولم يفعلوا

ذلك الا بعدما استحال ترك الحجرة بغير نور ، وبعدما ثبت أن بقائي في الظلام الحالك بلا قراءة ولا حديث ولا شاغل من الساعة الخامسة في المساء الى الساعة السادسة في الصباح ، أسبوعا بعد أسبوع وشهراً بعد شهر هو علاج وبيل لا ينصح به أحد من الاطباء •

ولكنها اباحات السجن ولا بد في طي كل اباحة من قيد أو قيود •

فالمفتاح الذي ينير ويطفيء النور لا بد أن يركب عند الباب من خارج الحجرة ، ولا يصح في حكم النظام أو حكم « الناموس » أن يركب في داخلها لكي أفتحه وأقفله حين أحتاج الى فتحه واقفاله •

وهو في تركيبه خارج الحجرة يظل معرضا لكل سجين يعبر بالعنبر أو يمشي في الدور ، ولا يكون معرضا لسجين واحد يحرص عليه لأنه ينير له ويعينه على شأنه ، ولكنه النظام ولا تفسير ولا تأويل لما يقضي به النظام !

فاذا فرغت من القراءة الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة فسبيلي أن أقرع الباب السميك أستدعي الحارس ليتولى هو بيديه « شعائر اطفاء النور » • فاذا كان قريبا متيقظا في تلك الساعة فالخطب هين ، والدعوة لا تطول الا ريثما تجاب • أما اذا ابتعد أو نام فالحل الوحيد في حكم النظام هو ازعاج السجناء الذين معي في الدور جميعا لادارة المفتاح الصغير ، فان لم يكن هذا فمبيتي سهران الى لصباح لأن أعصاب عيني لا تألف الغمض في الضياء •

١ ــ أخــلاق

الالفة شرط المعرفة .

ولا تصدق هــذه القاعدة على شيء كما تصدق على أخلاق الناس واستطلاع أسرار الانسانية التــي لا تنكشف ــ وليس في الوســع أن تنكشف ــ من اللقاء الاول .

فنحن لا نعرف شعبا من الشعوب ولا فردا من الافراد حق عرفانه حتى نقاربه ونعاشره ، ونزيل ما بيننا وبينه من حجاب الغرابة الذي يمنعنا أن ننفذ الى قرارة نفسه وتتغلغل الى بواعث أعماله ومناشيء احساسه ، وما يراه هو طبيعيا عاديا في نظره ويراه الآخرون في أنظارهم غريبا أشد الغرابة بعيدا أشد البعد من العادات المألوفة .

لكن الصعوبة في الامر أن الغرابة مانعة للمعرفة من جهة ولازمة لها من الجهة الاخرى .

مانعة للمعرفة لأنها تحجب عنا الاسرار التي تنطوي وراء الظواهر ولا تنكشف الا بانكشاف الاستار والحواجز .

ولازمة للمعرفة لأن المعرفة هي التمييز والفصل بين الحدود ، وكيف ترانا نميز انسانا من انسان ، اذا نحن لم نشعر بوجود الاختلاف والغرابة بينه وبين غيره ؟ أو نعتقد أنه مخلوق غــير الخلائق الاخرى في دخيلته وظاهر أمره ؟

لهــذا كانت المعرفة الحقيقية أصعب الاشياء وأدعاها الــى اليقظة والانتباه ، لأنها تفرض على النفس أن تجمع بين النقيضين في وقت واحد ،

وترى الشيء غريبا ومألوفا في حالة واحدة ، وانما يكون تذليل هـذه الصعوبة باشراك الشعور والخيال والعقل في البحث عن الامور التي نبتغي عرفانها والنفاذ الى بواطنها ، فما يراه العقل متناقضا مختلفا يجمعه الشعور في نور واحد ويتولاه الخيال بالتقريب أو التبعيد حتى تتمكن النفس من ادراكه واستيعابه على حقيقته التي تخفى عن الحس والمشاهدة .

وفي السجن يعاني الباحث هذه الصعوبة بعض المعاناة حين يراقب أخلاق السجناء ويعالج التمييز بينهم وبين سائر الناس في الطبائع والعادات. فهو يراهم مئات وألوفا ولا يرى غيرهم في حالة تعارض حالتهم ومعيشة تفترق من معيشتهم ، فيسبق اليه ــ من ثم ــ أنهم وسائر الناس على حد سواء في جملة الاحوال ، وانك تستطيع أن تبدل ألفا منهم في جنح الظلام بألف ممن يعيشون خارج السجن دون أن تحس الفارق بين هؤلاء وهؤلاء عند طلوع الصباح !

الا أن هناك أمرا خليقا أن يهون هـذه الصعوبة ويزيل اللبس والاختلاط بعض الازالة ، وذلك أن المسافة بين هذه البيئة « السجينة » وبين الباحث الغريب عنها تظل بعيدة مفصولة مهما يطـل الوقت ويبطل الفارق في مكان الاقامة ، فتبقى بينه وبينها على طول المدى وقرب الجوار مسافة كافية للرؤية الصحيحة والتمييز الواضح .

* * *

ومن السهل على من يراقب أحوال هؤلاء السجناء أن يقسمهم قسمة عاجلة الى طائفتين من المجرمين مختلفتين في البواعث والاخلاق وضروب الاجرام .

فهناك مجرم الاعتداء الذي لا يبالي ايلام غيره .

وهناك مجرم الخسة الذي لا يبالي ما يجلبه على نفسه من العار والمهانـة .

وأظهر ما يبدو من خلائق المجرم الاول ــ مجرم الاعتداء ــ أنـه

جامد الحس من ناحية الشعور بالالم على اطلاقه ، فهو يتحدث عن أفجع المصائب وأشنع حوادث القتل والتعذيب كأنه يتحدث عن فكاهة لا ازعاج فيها للسامع ولا للمتكلم ، وقلما يدرك استغرابك اذا أنت استغربت هذه اللهجة منه في وصف الفظائع والموجعات دون التفات منه الى وقعها أو مبالاة فرائسها أو المستمعين لقصصها ● وقد كان في الدور السادس ــ وهو الدور الذي فوق دورنا الخامس في عنابر السجن ــ فتى من قرى الصعيد قتل أخته في القاهرة لأنها هربت من أهلها ولاذت بدور البغاء ، فتعقبها حتى عثر بها في الدار التي تسكنها ، وراوغها أياما وهو يخفي عنها قصده حتى اطمأنت اليه وسالمته ومهدت له صنوف المتعة بصواحبها وجاراتها ، وهو يتحين الفرصة لقتلها في غفلة عمن حولها ، الى أن سنحت له ذات يــوم ففاجأها بطعنة سكين وانقض عليها بالطعنات دراكا حتى فارقت الحياة ● ففي ليلة من ليالي السجن طاب له السمر واستدرجه زملاؤه في الحجرات المجاورة له الى شرح قصته ، فما راعني الا أن أسمع هذا الفتى يصف قتل أخته ، وكيف غرر بها ، وكيف تناول الطعام معها وهو يخفي السكين في ثيابه ، ثم كيف طعنها بعد ذلك ، وكيف صاحت بــه تناديه باسم الاخوة وتناشده حرمة المشاركة في الامومة ، ثم كيف قضى عليها واحتز رأسها وسافر به الى بلده ليريه أنداده وقرناءه الذين عيروه من قبل واستطالوا عليه ● فلو أنه كان يتكلم عن ذبح شاة أو دجاجة لمــا اختلف الامر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان أقل من ذلك مبالاة بمــا يقول واسترسالا في النكات والمزاح كلما عبث به أصحابه وتعمدوا احراجه واستفزاز طبعه ● وليس هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تثير الغضب والنقمة ولكنها لا تخلق البلادة ولا تعمي الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكرى والاستعبار والاسف على ما كان من سبب القتل والاضطرار اليه ●

ومع هذا ربما كان لهذا الفتى القروي الجاهل الخشن عذره مــــن

عادات قومه وشدة الغيرة في نفسه ، وربما كان يبالغ في الاستخفاف بفعلته لتخدير شعوره والأنفة من الندم على شيء هو من واجبه في شرع فتوته وفي شرع أبناء بلده ، ولكني سمعت فتى متعلما يباهي بقليل ما تعلم من الدروس الابتدائية والثانوية ويكلم سجناء «الحماية» باللغة الانجليزية ليدلهم على حظه من الدراسة، ويريهم أنه سليل طبقة غير طبقة المسجونين معه في مثل جرمه، وكان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لاشتراكه في جماعة مؤلفة للسطو على الأغنياء ، فلما استدرجوه ذات ليلة للكلام عن سبب سجنه لم يتردد في ذكر السبب الصحيح ، ولم تبد على كلامه مسحة من الندم والخجل ، وانما كان يبدو عليه الزهو بانتمائه الى جماعة لها فروع وقرارات ورؤساء أقسام واجتماعات ومداولات ، وكان يتحدث عن قتل من تقرر عندهم قتله كأنه يتحدث عن عقبة يفخر بالمهارة في ازالتها ، ولا يفرض لها حياة تصان وتتعلق بها الآلام والأحزان •

وقد كنت أسمي هذه البلادة في هؤلاء المنكوبين « أنانية » أو امعانا في الأثرة العمياء لو كانوا يشعرون بالألم في نفوسهم ولا يشعرون بالألم في نفوس غيرهم ، ولكنهم على ما علمت من أطوارهم الكثيرة محجوبون عن شعور الألم حيث كان ، فلا يحسونه في أبدانهم ولا في ضمائرهم كما يحسه الآخرون فيما يعتريهم من المؤلمات الجسدية والفكرية ، وربما ضرب أحدهم رأسه بالحائط ضربا عنيفا داميا ليتهم غيره بضربه ، أو ربما وخز نفسه وعرض أعضاءه للتلف من أجل أيام قليلة يطمع في قضائها بالمستشفى أو تحت الرقابة الطبية ، وقد قطع أحدهم بضعة من جسمه بحديدة كليلة يكتبون عليها في السجن رقم السجين ولا تصلح للقطع الا بجهد شديد لأنه قدر أن هذه الفعلة قد توقع مأمور السجن في عقوبة أو شبهة اهمال !

فالآفة عند سجين الاعتداء انما هي آفة نقص في وظائف الشعور وليست آفة « الأنانية » على معناها الشائع المفهوم ، وليس ببعيد أن يجرم الانسان لفرط الشعور بالألم كما يجرم لقلة الشعور به في نفسه وفي

غيره ، ولكن هذا الصنف من المجرمين نادر جد الندرة بين من شهدت في سجناء « قره ميدان » •

أما مجرم الخسة الذي لا يبالي العار والمهانة فهو حقير بين ضراة المجرمين المعتدين ، يقولون عنه انه «تتن» يدخل السجن في غير طائل ويصبر على الاهانة وسوء المعاملة من المساجين ولا يستثار •

ومعظم ما يقترفه هؤلاء المجرمون « الأخساء » مقصور على صغائر السرقات والاحتيال على الصغار والأغرار وما الى ذلك من جرائم النذالة والطمع الوضيع •

وهم في الحق « تتنون » كما يقول عنهم زملاؤهم من أصحاب الضراوة والاعتداء : شعورهم بالعار ضعيف وشعورهم بالزهو أضعف ، ويعترفون على اخوانهم علانية بأقبح الرذائل في غير حياء ولا احساس بفقدان الحياء ، ومع هذا تأبى الطبيعة الانسانية أن تحرم أحدا نصيبه من الزهو والمباهاة ولو كان من أدنى الأدنياء ، فحتى هؤلاء يزهون فيما بينهم ببعض الخلال ويأخذون على أنفسهم بعض العيوب ، وبماذا يزهون؟ يزهون بالافتنان في أساليب النذالة والاحتيال الشائن المرذول ، وعلى من يعيبون ؟؟ يعيبون على الجهلاء بتلك الأساليب ! وعلى المحدثين في الاجرام لأنهم بلهاء لا يفهمون الخدع و « المصطلحات » التي يفطن لها ذوو الدراية بالسجون !! وهم في كل حال لا يعدون الزهو الرخيص الذي لا يكلفهم جهدا من الجهود •

٢ ـ أخــلاق

من أصدق المقاييس التي تسبر بها طبائع النفوس الفكاهة والغناء .

فانك لن تجد الفكاهة ولا الغناء في نفوس خلت كل الخلو مـن الخير والمحبة الانسانية وصلاح الفطرة للعطف والمؤاخاة .

فالسليقة التي تعرف الفكاهة تعرف مواطن الضعف والتناقض من النفوس الانسانية ، أو تعرف ـ بعبارة أخرى ـ أسرار النفس وخفاياها وما تداريه وما تكشف عنه وما تقابل به الدنيا ومـا تحفظه في أعمـاق سريرتها ، فكأنما تلك السليقة على اتصال أخوي حميم بجميع النفوس الآدمية ، كاتصال الصديق بصديقه المطلع على دخائل قلبه وحقائق نياته ، وكأنها على استعداد دائم لأن تضحك مع جميع النفوس ضحك السرور والمشاركة ، وأن تضحك منها ضحك العطف والمداعبة ، وتلك حالة نفسية لن تخلو من الخير والشعور الحسن من ناحية بني الانسان .

أما السليقة التي تحسن الغناء أو تحب الاصغاء اليه فهي سليقة تحس وتعرف الوزن والنظام بشيء من الزكانة والالهام ، وهي ـ كتلك ـ سليقة تلتقي بالنفوس الأخرى في مجال العاطفة والذوق والشعور بالجمال .

وفي السجن لم أر الا عددا يسيرا جدا يحسن الفكاهة ، وان كنت رأيت سجناء كثيرين هم موضوع فكاهة ومثار ضحك ودعابة . ولا أذكر أنني سمعت كلمات كثيرة تدل على فطنة للمواقف المضحكة والمساجلات النفسية اللطيفة، وان كنت قد سمعت كثيرا من النكات المحفوظة والفكاهات المكررة التي يفوهون بها كما تفوه الببغاء بما يلقى اليها من الأصوات .

ولم أسمع قط غناء حسنا من سجناء الجرائم العنيفة أو سجناء الجرائم الخسيسة • ولكنني سمعت الغناء الحسن من بعض الفتيان المحكوم عليهم بالحبس في قضايا تهريب المخدرات وتعاطيها ، وهم في أغلب الأحايين مسخرون ينقادون لكبرائهم المسيطرين عليهم ، لم تنغرس فيهم بعد نذالة الجريمة العامدة المدبرة التي تطلب الكسب من وراء الإضرار بالناس ، ومن كان منهم يتعاطى المخدرات فهو ضعيف يعتدي على نفسه وليس بمجرم من أولئك الجناة الأشرار الذين يعتدون على غيرهم عدوان المكيدة أو عدوان الضراوة •

فاذا اتخذنا الفكاهة والغناء مقياسا للخير والمحبة الانسانية في نفوس السجناء فأهل الخير فيهم قليل ، وهذا القليل الموجود يشف ــ في أغلبه وأعمه ــ عن معدن وضيع أو معدن مشوب ، وان لم يجز لنا أن نقول ان الخير فيهم معدوم وان صلاحهم ميؤس منه ، ولا سيما حين يعالجون بما يناسبهم وحين يقترن حسن النية في علاجهم بالفكرة الرشيدة والعزم الصبور •

ويخطىء من يظن أن السجناء لا يغنون كما يغني الطلقاء والأبرياء كلما وجدوا فرصة للغناء ، فانهم ليهتفون ولا يقصرون في الهتاف ملء صدورهم كلما خلا لهم الجو تحت ستر من الليل ، وربما كانوا اشد كلفا بالشدو والهتاف من الطليق المرسل على أرسانه ، لأن رفع الصوت وسيلة من وسائل الشعور عندهم بالحرية وارسال النفس على السجية ، فهو مطلوب لهذا الغرض ولو لم يكن فيه طرب أو سلوى ، ولا حاجة بالانسان الى دخول السجن لعرفان هذه الحقيقة بل لاستماع هذه الحقيقة الصارخة من مسافة بعيدة ! فان العبور على مقربة من السجن بين العشاء والساعة التاسعة كاف لاستماع ما يسمعه السجناء في الداخل من الغناء والهتاف ، وقلما تمر ليلة واحدة دون أن يدوي السجن بأناشيد أهل الصعيد ومواويل أبناء البلد على اختلاط لا تمييز فيه بين السامع

والمسموع ، ولكن أهل الصعيد وأبناء البلد كما يعلم القراء يغنون كأنهم يتكلمون ، أو هم يغنون ويصيحون حين يعوزهم السمر والكلام وتكل ألسنتهم من السكوت ، وليس هذا الذي نعنيه بالغناء المبين عن الطبائع والاخلاق ، وانما نعني به الأوزان الفنية التي تتجلى فيها الأذواق وخلجات العواطف وألوان الاحساس، وهذا الذي تقول إنه قليل نادر بين المجرمين .

* * *

وربما كان الأولى بي أن أتخذ مقياسا آخر للخير في طبائع زملائنا السابقين يعنيني أكثر مما تعنيني هذه المقاييس التي تعم جميع الباحثين في هذه المشاهدات ، لأنني اختبرت من معاملة زملائنا صنوفا من البر والطيبة مختلفة المصادر والاسباب ، فكنت أنا نفسي مقياسا محسوسا يقاس به ويقيس !

فمنهم — وهم القليل — من كان ينطوي على كرم مأثور ، ويلوح لنا من بعض بوادره وتصرفاته أنه يقبل على نفسه حالة السجن ومضانكه وآلامه ولا يقبل أن يعانيها رجل من ذوي الصناعة الفكرية ، كأنه يحس في قرارة ضميره بفارق بين عمله وعملنا وسائقه الى السجن وسائقنا ، ولا يأنف أن يعترف بهذا الفارق ثم يرجح كفتنا على كفته عند الموازنة .

ومن هؤلاء من كان أساه لنا واهتمامه براحتنا والتسرية عنا يكلفانه المجازفة الجريئة والاقدام على العقوبة وتضييع حقه في الاعفاء من ربع المدة وهو الحق الذي يناله كل من قضى مدة السجن بغير اخلال بقواعد النظام ، ويزيد في فضلهم أنهم كانوا لا يطمعون منا في جزاء عاجل ، ولا ينتظرون الجزاء بعد الافراج عنهم وعنا ، اذ كان موعدهم بمفارقة السجن بعد موعدنا بسنوات أو شهور طوال .

وقد كان بين هذا الفريق فتى يجيد الغناء بعض الاجادة ، ويبث فيه شيئا من الحنين السائغ والبواعث الشجية ، وكان يخشى الحراس اذا غنى مساء لأنه معروف الصوت في السجن كله لا يختلط حيث كان بأحد

غيره ، فكنت أسمع بعض زملائه الذين يحضونه على الغناء يقولون له ان « الأستاذ » ــ ويقصدونني أنا ــ هو الذي أوعز الينا أن نقترح عليك كيت وكيت من الأدوار ، فلا يتردد في الاجابة دون أن يعرفني أو أعرفه ودون أن يلقاني أو ألقاه .

ومنهم من لا يبلغ مبلغ هؤلاء في كرم الخليقة ولكنه يخدمنا ويبذل المعونة لنا عن غبطة منه بانشاء العلاقة بينه وبين أناس يراهم أرجح منه منزلة وأكبر ممن تجمعه بهم علاقة الزمالة ، ويرضيه أن يستحق من هؤلاء الناس كلمة الثناء وعرفان الجميل والشعور بفائدته لهم في حالة من الحالات ، وتلك ولا ريب نية خير لا غبار عليها ، لأنها دليل على طبيعة لم تتجرد من التطلع الى حسن الظن وطيب الأحدوثة .

ومنهم من كان باعثه للخدمة والمعونة اعجابه بالجرأة كما يفهمها ، ونظره الينا كما ينظر الى أنداده الجسورين في معارك الفتوة ومقاحم الضرب والمصارعة ، وهو باعث لم نكن نغتبط به وان كنا لا ننسى حسن النيـــة فيـــه !

وكلهم كانوا يضمرون لنا شعور المودة ويخلصون الرغبة في بذل المعونة الميسرة لهم كلما أتيحت لهم وسيلة من وسائلها .

* * *

على أننا لم نخطىء في معظم السجناء عاطفة مصرية صميمة لاحظناها في جميع المصريين على تباعد الطبقات والأقاليم ، ونعني بها « عاطفة العائلة » وما يتفرع عليها من رعاية الأرحام والأسنان .

رأيت مرة طفلا صغيرا من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم الى سجن الأحداث في الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقرانه الصغار ينتظرون الترحيل في فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين ، فمر به سجين من العائدين في جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة الطبيعية التي يستشعرها الصغير في غيبة اهله وقال له (جوعان)!

فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له : « وماذا أصنع لك يا بني ؟ ! »

وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك في الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من المخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو نظروه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد •

ورأيت رجلا شيخا نازلا من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة ، ولا يجد الممرض الموكل به وبغيره من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشرة لا يدل مرآه على ضلاعة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر في خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم اليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله دون أن يكلفه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله •

وتلاحى شيخ فان وفتى عارم مشهور بالشر والعربدة في السجن وفي الحي الذي يعيش فيه ، فسبه الشيخ سبا لا يطيقه من كان فتى في سنه ، ولا يأمن من يسبه به ان يستهدف لضربة قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب الا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « انظروا الى الرجل الشايب يعيب ولا يخجل ! •• » وقال للرجل الشايب: « لو غيرك قالها لقتلته ! ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبي ؟ »

وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة في أخلاق الأمة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد في هذه الأمة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية والبيتية على اجمالها، ولهذه الظاهرة في تكوين الأخلاق وتحويل العادات قرار عميق لا يغفل عنه المصلح الاجتماعي المشغول بأطوار هذه الأمة العريقة ، ومن زمام هذا الخلق الأصيل ينبغي أن يتناول المصلح الاجتماعي أهم دواعي الاصلاح فيمن يحتاجون اليه من الضالين والزائغين، سواء كانوا من نزلاء السجون أو من الطلقاء الذين نجوا من العقاب ولم ينج الناس مما يجترحون عامدين وغير عامدين •

الوعظ

من المناظر — ولك أن تقول من المسامع — القليلة المؤنسة في السجن حلقات الوعظ التي يعقدونها بين حين وآخر ، ففيها يتسنى لمن بالسجن أن ينظروا الى اجتماع انساني يخاطب فيه السجناء خطاب أصحاب النفوس التي قد يثمر فيها الكلام وقد يرجى لها العلاج !

رأيت أول حلقة من هذه الحلقات يوما من أيام الاثنين على ما أذكر ، اذ كان بعض الحراس ينطلقون بين الحجرات ينادون : « المسيحيين المسيحيين » وأنا أعجب لهذا النداء ولا أدري لماذا يجمعون المسيحيين وحدهم دون بقية السجناء ، وقبل أن أسأل أحدا عن القصة رأيت الواعظ المسيحي في ثيابه السود ، فذكرت الوعظ في السجون وانتظرت أثناء الرياضة الصباحية حتى أسمع ما يقول باسم الدين لهؤلاء الخارجين على الشرع والقانون .

وما هي الا لحظات معدودات حتى أقبل السجناء المسيحيون أفرادا متفرقين من مذاهب شتى لا تجمعها كنيسة واحدة ، فجلسوا بين يدي الواعظ القرفصاء الى زاوية مشمسة في فناء السجن ، وجلس هو على كرسي وفتح التوراة وأخذ يقرأ منها ما صادفه من القصص ويشرح معناها بصوت يعلو ثم يعلو حتى يسمعه من في الميدان القريب .

ومنذ ذلك اليوم كان يطيب لي أن أشهد هذه الحلقات وأسمع ذلك الواعظ كل يوم اثنين ، لانه كان يتحدث عن قصص التوراة حديث الحاشية المخلصة عن النوادر الملكية التي تقع بين كبار السلاطين وكبار الاتباع ذوي

الدالة عليهم ، وكان يروي التجارب التي يبلو بها الله أنبياء بني اسرائيل كأنها مفاجآت الاب الشيخ الحكيم حين يمتحن مدارك الابناء الصغار ويغتبط بما يراه من حيرتهم البريئة وضعفهم المستسلم ، ويضحك أحيانا ضحك العطف والرجاء حين يكشف لهم عن دعواهم القاصرة وغرورهم المتعجل ، فيطيب لي أن أرى التوراة منقولة الى عالم الخيال الفطري والتصوير الشعري والتمثيل الفني الذي لا تكلف فيه .

وكان من عادته اذا فرغ من شرحه ووعظه أن يطلبُ الى أحد السجناء أن ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يجيش في نفسه ونفوس زملائه ، فمنهم من يحسن الكلام ومنهم من يتعثر بالالفاظ المألوفة في الادعية والصلوات ، وكل أولئك مما يستحب الاصغاء اليه والتأمل في مغزاه .

ولا أحسب أن احدا منهم كان يجيد الكلام في دعائه وصلاته كما كان يجيده رجل من أضراهم بالشر وأولاهم بالعقاب وأسوئهم سيرة بين السجناء ، وان شهدوا له بالبراعة والذكاء : وهو تاجر مخدرات مشهور .

سمعته مرة يصلي ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بني الانسان ... فسألت عنه فقيل لي هذا فلان صاحب الحيل المعروفة في ترويج المخدرات، وكنت قد سمعت عنه وعن قضاياه وأحابيله في ايقاع صرعاه ، واغرائهم بتناول السموم وادمانها ، فقلت لو كان هذا المصلي الخاشع يدعو الله ليستجاب دعاؤه لما دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه ! ولكنها حيلة جديدة من حيله الكثيرة ، ولعلها أيضا من حيل التخدير !

* * *

ويتردد على سجن مصر عدة من الوعاظ المسلمين بين الصبيحة والظهيرة ، ولكن في غير موعد مقرر أو يوم معلوم .

فاذا وصل أحدهم الى السجن جمعوا له سجناء دور من الادوار في ساحته الارضية ، وجلس هو على كرسي أمامهم ينصح لهم ويحذرهم عقاب الآخرة بعد عقاب الدنيا على طريقته في النصح والتحذير .

فبعضهم كان يحفظ خطبه ويعيدها كما هي كل مرة بعد تحوير طفيف لا يقدم ولا يؤخر ، وهو يحاول أن يذهل سامعيه من السجناء عن هذا التكرار برفع الصوت والتلبس بالغضب والصرامة في الزجر والانذار ، ويمضي في تكراره مطمئنا اليه لانه يعظ في كل مرة سجناء دور واحد من أدوار السجن الكثيرة ، وتنقضي مدة طويلة بين العظتين في الدور الواحد يخيل اليه أنها كفيلة بالتشكك والنسيان .

وبعضهم يتوخى الطريقة العصرية في اختيـار المناسبات واتخـاذ المناسبة الاخيرة من بعض الحوادث الطـارئة التي لها مساس بأحـوال سامعيه .

وبعضهم يعتمد على التأثير بالسن والمهابة والسمت والثياب الفاخرة ، ويحيط عظاته بمراسم طنانة كأنها مراسم أصحاب العزائم والتعاويذ .

وكان يعنيني أن أراقب السجناء حين يحضرون الى العظات وحين ينصرفون ، لأرى كيف يقبلون عليها وكيف ينصرفون عنها وكيف ــ فيما بين ذلك ــ يستمعون اليها .

فبدا لي أن أناسا منهم يحضرونها بروح الهازىء المستخف الـذي يتحدى الواعظ بشقاوته واستعصاء أمره ، وكأنما يقول بينه وبين نفسه : (هلموا الى ذلك الرجل الطيب الذي يحسب أنه يفهم من الامور ما لا نفهم ، لنرى كيف يعلمنا العقل والدربة ، ويصلحنا بكلماته وتهويلاته) .

وأناس منهم يرحبون بساعة الوعظ كما يرحب التلميذ بساعة لعب يستريح فيها من حصة الدراسة ، ويأنس فيها بالجلوس بين اخوانه في شيء من الطلاقة والسماحة .

وأناس آخرون يرحبون بساعة الوعظ لأنهم يغتنمون فيها الفرصة حين يزجرهم الواعظ ويصب عليهم اللوم والتبكيت ، ليبثوه الشكوى من قسوة الحراس وجور الاحكام ، ويلقوا شيئا من اللوم على (النظام) وشيئا من اللوم على الايام .

ولا تخلو جموعهم من أفراد تلمحهم عند انصرافهم منكسي الرءوس كاسفي البال من أثر الوعظ أو من تداعي الخواطر واسترسال الخيال ، وربما سمعتهم يرثون لأنفسهم ويندمون على ما فرط منهم ، ويودون لو هداهم الله وردهم أناسا كسائر خلقه لا يعرفون المحاكم والسجون ، ولا يبتغون العيش الا من الرزق الحلال ، ناعمين وادعين بين الامهات والآباء والازواج والابناء ، ثم يعلقون ذلك كله على القدرة والاستطاعة ، وهم مستقرون في ضمائرهم على أنهم لا يقدرون ولا يستطيعون ، لأنهم لا بد لهم من العيش وكسب الرزق ، وهم يشكون بوار الصناعات وشح الناس وندرة الاعمال •

* * *

على أن أثر الوعظ في الجملة ضعيف سريع الزوال ، وقد يبلغ من ضعف أثره وسرعة زواله أن ينقضه بعض سامعيه في ساعة سماعه ، وأن يصبح الواعظ نفسه هدفا يرميه أولئك الخبثاء ، وصيدا يصيدونه ، ودليلا يثبتون به أو يثبتون فيه بطلان وعظه وضياع جهده وعبث رجائه ، حتى يخيل الى الانسان في هذه الحال أن حلقة الوعظ انما هـي حلقة سباق وصيال بين الجريمة والهداية ، تلتقيان فيها لتنظر كلتاهما أيهما هي الاقدر على الظفر بالاخرى وتعريضها بين المتفرجين للهزيمة والسخرية ! انتقاما منها لاعتدادها بنفسها وسوء ظنها بقوة غريمتها ! وقلما تتمثل حلقة المباراة هذه في شيء كما تتمثل في القصة التالية التي سمعتها مـن أحد موظفي السجن ، والعهدة على راويها •

أعرف واعظا مشهورا يطوف بلاد القطر ويحب أن يتخذ له أبناء من موعظيه في كل بلدة وكل اقليم ، يرعاهم رعاية أبوية ويسره أن يرى منهم حفاوة البنوة وتحيتها ، ويمد يده للتقبيل كلما انتهى من وعظه غير ممتنع ولا ناظر الى تقبيل يده الا كما ينظر الاب الى تحية الاعتراف والشكر من ولده •

وشاخ الواعظ الذي أعنيه وضعف عن الطواف في أنحاء القطر ، ولكنه لم ينقطع كل الانقطاع عن الوعظ في السجون وان أطال الفترة بين عظاته كلما تقدمت به السن •

وجاء الشيخ يوما وهو لا يكاد يقوى على الجلوس والحركة الا بمعونة معين ، فأسهب في نصائحه على عادته وملأ السجن بأصوات الدعوات يلقيها على سامعيه ، ثم يطلب منهم تكريرها مرات متواليات بنغمة مرتلة يلقنهم اياها وهو يهتز بينهم على نغمة ترتيلها ، أو يتركهم يعيدونها ويسبح في غيبوبته العلوية حتى يفيق منها !

فلما ختم عظاته وترتيلاته تدافع السجناء حوله يهمون بتقبيل يديه والتماس البركة منه فاذا هو يحجم عنهم ويصيح بهم صيحة منكرة : « مكانك يا ولد ! اياك أن تقترب يا ولد ! من بعيد يا ولد ! » كأنه يرتل هذه الكلمات على طريقته في ترتيل النغمات !

قلت لبعض الموظفين ممن اتفق وجودهم على مقربة مني « ما خطب الشيخ يأبى تقبيل اليد من هؤلاء ؟ أزهادة منه في السجناء ؟ أم زهادة في هذا الصنف من قبلات الابناء ؟ »

قال : « لا هذا ولا ذاك ، ولكنه معذور لأنهم سرقوه مرة ويخشى أن يعيدوا عليه الكرة ، فهو يجانبهم هذه السنوات ويستعيض الله خيرا من تلك القبلات » •

قلت : « يا سوء هذا التقريظ ! أيسرقون واعظهم وهم في دار العقاب ؟ ! »

قال : « لقد فعلوا جزاهم الله من أبناء عققة ، وفعلوها في يوم تجلى فيه الاستاذ فاختلب القلوب وأبكى العيون ، وأرسل يديه لهم ينكبون عليهما بالتقبيل ويوسعونه من التمسيح والتبجيل ، وهو يحسب أنهم ينتصحون ولا يسرقون ، وينتفعون بما يفعلون ، فقد أشبعهم وعظا وهداية فأشبعوه اعترافا ورعاية •

وذهب الى حجرة المأمور وقد رضي عن نفسه وأحب أن يكافئها بعطسة أو عطستين من عطسات الايمان والتسميت برحمة الله . فضرب يده في جيبه الواسع فاذا علبة السعوط ضائعة ، وأسرع الى مكان الساعة الذهبية الثمينة فاذا الساعة ضائعة ! وكيس النقود أين هو ؟ لا ريب أنه لن يبقى في الجيب اذا فارقته الصاحبتان الحميمتان !

« وطارت بقايا الوعظ من رأس مولانا ، وصاح بالمأمور يستغيث ، فأكبر الرجل أن يصاب الاستاذ في كفالته بهذه الخسارة الفادحة لأنها خسارة في وعظه وفي ماله ، فجمع السجناء الموعوظين ولما يستقروا بالحجرات ، وأقسم لهم لينكلن بالسارق شر تنكيل اذا هو اهتدى اليه ولا بد أن يهتدي اليه ، فلينقذ نفسه من شاء السلامة ولا عقاب عليه .

« فأما علبة السعوط فقد عادت فارغة لأن « الشطار » أحرص من أن يفلتوا من أيديهم شيئا فيه رائحة الدخان .

« وأما الساعة فقد عادت لأنها لا تنفع ، وعاد معها كيس النقود لأن النقود التي فيه أكبر من أن تبلع ، وسئل السارقون : كيف تجترئون على الاستاذ وتستحلون ماله وعتاده وتزدرون وعظه وارشاده ؟ فقال خبيث منهم : ما اجترأنا عليه ولا سرقناه ، وانما هي بركة من مولانا نغتنمها ونتقرب بها الى الله ! »

قال الموظف الذي يقص علي ما رآه : تلك قصة الشيخ . فهل يلام اذا هو ضن بهذا المال المبارك وفرط في القبلات ؟ وهل عليه جناح اذا هو أشفق من هذا الافراط في اختلاس البركات ؟!

* * *

ونحسب أننا نظلم السجناء اذا أحلنا الذنب كله في فشل المواعظ على رداءة طباعهم واستعصاء أدوائهم . فالواقع أن المواعظ على أحسن حالاتها لا تشفي غلتهم ولا تخاطبهم بما يناسبهم ولا تتحرى دخائلهم ومواقع التأثير والاقناع من طواياهم ، والواقع أن اصلاح الاخلاق عسير

في السجون . وهي على نظامها القامع الذي يفرض الكبت على الطبائع ، ويشل وظائف الحياة في جسوم قوية ونفوس لا تقصد العفة لطهارة أو قداسة حتى يقال انها تستفيد بالرياضة وعلاج الشهوة والارادة .

وأشد من ذلك ايذاء لأخلاق السجناء أنهم يفقدون في السجن الدرس الوحيد الذي هم مفتقرون اليه .

فهم أناس منحرفون يجزيهم القانون بما يجزيهم به حين يعتدون ويسلبون ، لأنهم يؤمنون بالعنف والقوة ولا يؤمنون بالحقوق وآداب الاجتماع ، ويعتقدون أنهم في حرب مع المجتمع مـن غلب فيها ظفر ولا جناح عليه ، فاذا استطاع أحدهم شيئا فعله ولم يحسب حسابا لما يجوز له وما لا يجوز .

فماذا يلقون في السجن من معاملة السجانين ؟ يلقون من معظمهم ما يثبت في نفوسهم تلك العقيدة ويزيدهم ايمانا بأن الامر قائم على العنف والغشم واعتداء من يستطيع العدوان ويأس الضعيف المغلوب من انصاف ذوي السلطان ، فيبطل درس الشريعة والادب ويبقى درس الواقع الذي شبوا عليه من نشأتهم الاولى ووجدوا مصداقه في السجن ومباءة الاصلاح والتوبة ، وكيف يراد منهم أن يعدلوا عن ذلك الدرس ويرتابوا في صدقه وهم لا يجدون الا ما يؤيده ويزكيه !

ليلة المستشفى

اذا كان السجين يستنفد كثيرا من الحيلة والخبث في تهريب الممنوعات فمن الحق أن نعلم أنه لا يستنفد حيلته كلها ولا خبثه كله في هذا المطلب العزيز ، ولكنه يستبقي كثيرا منهما أيضا لتهريب صنف آخر عزيز عند السجناء وان كان بغيضا أشد البغض عند الطلقاء ، وهو المرض ، قاتله الله .

نعم « المرض » أعني ، ولا خطأ في الكتابة ولا في الطباعة ! ! فان الامور لتنقلب أحيانا في السجن رأسا على عقب حتى يتمنى المرء فيه ما يتمنى الخلاص منه وراء جدرانه ، والمرض بعض هذه الامور .

اذا تيسر بقضاء من الله فذاك لطف من الله ! واذا لم يتيسر فالصناعة تغني هنا ما ليست تغنيه الطبيعة ، والمرض الصناعي المقلد عزاء لمن فاته المرض الطبيعي الاصيل ، حتى يأذن الله بما يشاء .

ولهذا برع السجناء في تقليد الامراض على أنواعها وفي مقدمتها الامراض الجلدية والامراض التي ترتفع بها الحرارة ، فليس أيسر عليهم من اصطناع الحمى أو اصطناع الجرب والبثور الكريهة واغراض الاصابات السرية ، وتسمع الواحد منهم يهمس لصاحبه في أثناء الرياضة أو يناديه بالليل اذا أمن الوشاية : « غدا حمى في العيادة يا فلان ! » أو « غدا في قسم الجرب ! » فاذا هو موعد يلتقيان فيه ساعة بل ساعات وقد يطول الى يوم بل أيام ، لأن المريض الذي يلتبس مرضه على الطبيب يحجز في قسم « الملاحظة الطبية » حتى تنجلي حقيقة دعواه وتسفر الملاحظة عن

دخوله المستشفى أو اعادته الى الحجرات ، مع جرعة مريرة من العقاب •

وليس العقاب بالشيء المهم عند مصطنعي المرض وطلاب الراحة فترة من الزمن ولو أعقبها التعب المضاعف ، فان السجين اذا ظفر بالانتقال الى قسم « الملاحظة الطبية » أياما فقد غنم الفراغ من العمل أولا ، وغنم الطعام المقبول في بعض الحالات ثانيا ، وغنم لقاء أصحابه الذين يحال بينه وبينهم في الحجرات والمصانع ، وقد يسعده الحظ عند الطبيب فيغنم الصعود الى ساحة الرضوان عند السجناء ، وهو المستشفى !

وهذا المستشفى اذا رآه انسان من الطلقاء عافه لأول نظرة ولم يصبر على البقاء فيه ساعة واحدة ، ولكنه مع ذلك أمنية لا يسعد بها الا المجدود وصاحب الحيلة التي تتسع لصنوف كثيرة من المداورات والمراوغات ويعلمها بعض موظفي السجن وبعض الاطباء ، ولكن لا يتسع المقام هنا للتفصيل والبيان •

أما كاتب هذه السطور فليس من السعداء المجدودين ، ولكنه من الاشقياء المطرودين ! لأنه وصل الى المستشفى وفر منه تحت سواد الليل ولما تنقض عليه غير ساعات ، وماذا عساك أن تصنع لمن يرقى الى هذه الامنية الغالية ثم يدركه البطر فيدفعها عنه بيديه ؟

هكذا حصل • فقد علم القراء أنني دخلت السجن بذخيرة من السعادة في عرف السجناء تكفي عشرة منهم لو كان هناك عدل في القضاء !

دخلته بألوان من السقام فوق الاصطناع وفوق التقليد ، ولم ألبث أن نقلت الى المستشفى — حكما ورسما — وأنا لم أبرح حجرتي الارضية التي لا تدخلها الشمس ولا تفارقها الرطوبة ! فلما سألتهم : ألا توجد في المستشفى حجرة مفردة تدخلها الشمس وتفارقها الرطوبة ؟ قالوا نعم توجد هذه الحجرة ولكنها مشغولة بدواليب الملابس كما أسلفت في بعض هذه المقالات •

وعلى هذا لا بد من البقاء حيث أنا أو الانتقال الى احدى الغرفتين

الواسعتين في المستشفى للاقامة هنالك مع جمهرة من المرضى قد تبلغ العشرين •

فبقيت حيث أنا عدة أيام ، وبقي الزكام يتقدم ويتقدم حتى احتبست الانفاس وامتنع النوم وعيف الطعام وهبط وزن الجسم بضعة أرطال ، ولم يبد من الظواهر ما يدل على تحسين قريب في الحجرة الارضية المحسوبة من المستشفى ، وهي معزولة عنه بحراس وأسداد •

لقد رأيت ذلك المستشفى — أي رأيت ساحة الرضوان بعيني — مرات في خلال زيارة الطبيب ، ولكني لم أطمح اليه ولم أزل أتوقاه وأتحاماه ، فلما طال الامر وخيفت العاقبة ألا تجرب ساحة الرضوان مع المجربين ؟ ألا تفتأ على زهدك في هذا الرجاء الموعود وفي كل رجاء عند القوم موعود ؟

وجئتهم صباح يوم لم أنم في ليلته لحظة واحدة فأنبأتهم أنني أوثر غرفة المستشفى الواسعة بين أشتات المرضى على البقاء في هذه الحجرة المسقمة ، فلما كان العصر جاء الاذن بالانتقال فانتقلت الى غرفة المجروحين والمكسورين ومعي بعض الصحف والكتب والعقاقير والقوارير •

وانقضت الساعات الاولى على ما يرام :

نظرت من النافذة التي كان سريري يقابلها فاذا بي أرى ميدان القلعة والناس يذهبون فيه ويجيئون والمركبات تروح فيه ذات الشمال وذات اليمين ، وهذه سعة — ولو نظرية — لا يشعر بها السجين بين حجرات العنابر الارضية ، فغالطت نفسي قليلا وقلت خير !

وهبط المساء فأضاءت المصابيح الضئيلة واستطعت أن أقضي هنيهة في قراءة الصحف المسائية ولم أكن أستطيع ذلك في الحجرة الارضية قبل ادخال النور اليها ، فغالطت نفسي مرة أخرى وقلت خير ، ولعله خيران !

وسكن ليل السجن الا أصداء من الطريق فاستوى كل مريض على سريره ، وأخذوا في السمر الطريف ، وأي سمر طريف ؟ هذا مدمن

مخدرات قبضوا عليه وأودعوه سجن الاستئناف ريثما يفرغون من تحقيق أمره فألقى بنفسه من الدور الثاني الى الارض هربا من الدنيا التي يحرم فيها بلاء المخدرات ! وهذا مدمن آخر يصف كيف يعالجونه من دائه بنقل الدم من جسمه الى جسمه لأن دمه لا يزال كالسم المخدر اذا سرى اليه أغناه عن الجرعة المشتهاة ، وهذا يذكر أيامه في سجن طرة الكبير بين القتلة وقطاع الطريق وهو لا يخلو في ذكرياته من ازدراء حاضره والحنين الى ماضيه ، وهذا يتحدث بما عاناه في دخول المستشفى من العنت والبلاء ، وبين ذلك كله جريح يئن وآخر يقضي ضروراته على مشهد ممن حوله ، وآخر يستدعي صاحبه ليعينه على قضاء ضروراته عجزا منه عن القيام والحركة . وقس على ذلك ما عداه .

وكانت النوافذ مفتوحة في ساعات المساء الاولى ، فلما أغلقت واحدة بعد أخرى فشت روائح الدواء وما هو شر من الدواء في الغرفة المغلقة ، وزاد الكرب حين هدأت الاصوات وخيم السكون فلم يكن يقطعه الا أنين مقلق أو زفير مختنق من بعض أولئك المساكين ، والا دقات الساعة الكبرى في مسجد القلعة تتزايد في عدتها على الحساب العربي كأنها تستحث الليل الراكد الثقيل .

* * *

وجعلت أصابر الوقت لحظة بعد لحظة ولا سبيل الى الاغفاء ، وكلما ابتدأ نصف ساعة قلت سأنام قبل انتهائه وهو ينتهي وينتهي ما بعده ولا اختلاف بين الانصاف ولا الساعات ، وكنت أحصي الوقت على الحساب الافرنجي بظهور المرض صاحب النوبة وهو يفتح الباب كل نصف ساعة ويتسلل الى آخر الغرفة ليدير مرصد الساعة الذي يسجل له مثابرته على السهر طول الليل ، ومضيت أشغل الوقت خلال هذه الفترات بفكرة واحدة لا تتبدل وهي : هل من فائدة للانتظار ؟ وهل أرجو أن أستقر في هذه الغرفة أياما وشهورا وتلك حالتها بضع ساعات ؟ ثم انقضت الساعة الثانية

فطاولت نفسي الى الثالثة في انتظار نوم نافر لبثت أنتظره ليالي متعاقبات ، وشعرت بمضض انتظاره تلك الليلة في كل لحظة لما خامرني من خيبة الأمل وما أحاط بي من التنغيص والايذاء ، فلما كانت الساعة الثالثة بلغ الصبر غاية مداه ، ولما انتصفت الرابعة بادرت الممرض وهو يفتح الباب وطلبت اليه أن يدعو ضابط الحراسة تلك الليلة ، فتردد قليلا ثم لم ألبث أن سمعت قرقعة المفاتيح في هبوطه على السلم وصعوده بعد فترة ومعه ضابط الحراسة •

سألني الضابط مستغربا : ماذا جرى ؟

قلت : لا شيء الا أنني لا أطيق المكث بهذا المكان ولا بد لي من العودة الى الحجرة أو المبيت في أي مكان غير المستشفى •

فتبسم كأنما كان ينتظر هذه النتيجة وقال لي : وماذا كنت تصنع لو صادفتك القرعة في قسم الامراض الباطنية ؟

قلت : أهو شر من هذا ؟

قال : بما لا يقاس •

قلت شكرا لكم على هذه المرحمة ؟ ولكن الحجرة على كل حال أرحم من الغرفتين ، لأني أجد الأرق هنا وهناك ولكني آرق هناك ولا أسمع الانين ولا أشم هذه الروائح ولا أرى ما يسوء •

وهكذا ودعت المستشفى غير آسف وطويت الليلة ساهدا الى الصباح ، ثم خرجت من السجن بعد عدة شهور ولو أنني استعرضت ليالي فيه لما استطعت أن أذكر بينها ليلة أسوأ ولا أنكأ من ليلتي تلك في ••• ساحة الرضوان •

احمد حمزة

أحمد حمزة رجل بارع الذكاء .

بل هو أبرع الناس ذكاء ان كان المقصود من الانسان أن يفهم عكس ما يفهمه الناس .

فاذا اتجه الفهم بين الناس من اليمين الى الشمال فالشيخ أحمد حمزة خير من يفهم من الشمال الى اليمين ، وكل ما هنالك ـ كما يرى القراء ـ اختلاف في اتجاه الفهم كالاختلاف في اتجاه الكتابة بين العرب والاوربيين : فريق يبدأ السطر من يمينه وفريق يبدأه من شماله ، وكلهم يكتبون ويقرأون .

وأحمد حمزة هذا ليس بسجان ولا بموظف في السجن ولا بزميل فيه ، ولكنه طاهي البيت عندي منذ عشر سنوات .

ولا يعرف القارىء كنه طريقته في الفهم الا ببعض الامثلة الواقعة ، فالى القارىء من هذه الامثلة قليل من كثير .

أيسر طلب تطلبه منه يجري على هذا الاسلوب :

ـ هات قهوة يا شيخ أحمد

ـ نعم ؟

ـ هات قهوة

ـ أجيء بماذا ؟

ـ بقهوة !

ـ بقهوة تقول حضرتك !

ـ أي نعم بقهوة

فيكتفي ولا يحوجك بعد ذلك ـ لذكائه ـ الى يمين مغلظة ليصدق أنك تطلب قهوة !

* * *

وكنا على المائدة سبعة فطلبنا من الشيخ أحمد حمزة أن يضيف الى كراسي المائدة الستة كرسيا سابعا من غرفة الاستقبال •

ثم كان الاسبوع التالي فكنا على المائدة أربعة ، وكان كرسيان من كراسي المائدة خاليين ، ولكن أحمد حمزة صف الكراسي الستة على حسب العادة وجاء بالكرسي السابع من غرفة الاستقبال ، لأن هذا المكان حق كسبه الكرسي بالاستعمال • ولما ضحكنا وأغرقنا في الضحك نظر الرجل الى الكراسي ونظر الى ما حوله والى نفسه في حيرة واستغراب لا يدري فيم يضحك هؤلاء الناس ولا ممن يضحكون • أينكرون عليه زيادة الكرسي وهم الذين أمروه بنقله قبل أسبوع ؟ أيضحكون منه أن خالف ويضحكون منه أن أطاع ؟ لا جرم يعقل هؤلاء الخلق من اليمين الى الشمال حين ينبغي أن يكون العقل من الشمال الى اليمين !

وكنت متعبا في بعض أيام التوعك والانحراف •

وكنا نهيىء مكانا في البيت لاحضار قطعة من الاثاث ، ونحب أن نقيس المكان الذي توضع فيه على حسب المقاس المطلوب ،

فقلت له عليك يا شيخ أحمد بالمتر فقس الحائطين وقل لي أيهما اطول وأصلح لوضع الأثاث المنتظر ، فمضى هنيهة ثم عاد يتمتم ويوسوس كمن يناجي الغيب •

قلت : ما الخبر يا شيخ أحمد ! هل قست الحائطين ؟

قال : نعم

قلت : وكم الطول ؟

قال مثلا : ثلاثة أمتار

قلت : وكم العرض ؟

قال : كذلك ثلاثة أمتار

فعجبت للامر لأنني أعرف أن الحجرة ليست مربعة ولكنها مستطيلة بعض الاستطالة ، وسألته : أي الحوائط الاربعة قست ؟

قال : الحائط الذي فيه الباب والحائط الذي أمامه !

* * *

وكان في المنزل ضيوف ذات يوم وأنا أفضل اذا كان في المنزل ضيوف أن أغسل يدي في حوض المطبخ وأدع لهم حوض الحمام ، فدخلت المطبخ ـ حرم الشيخ أحمد ـ وطلبت منه صابونة فذهب وعاد بها وأنا أبدأ غسل يدي ووجهي على مهل ولا أحسب أن هناك ما يدعو الى العجلة . ثم خرجت فاذا بالضيوف كلهم عند حوض الحمام ينتظرون الصابون ، لأن الشيخ أحمد أخذ الصابونة من ذلك الحوض ولم يخطر له أن يسأل نفسه لماذا أجشم نفسي أن أغسل يدي ووجهي في المطبخ وأدع لهم الحمام ، وانما قيل له : هات صابونة فجاء بصابونة ، وهذا هو المطلوب ، ولماذا لا يجيء بها من حوض الحمام ولم يقل له أحد مؤكدا مشددا : اياك أن تجيء بها من حوض الحمام ؟

أما معجزة الشيخ أحمد الكبرى فهي تلك التي صنعها بصورة قصر أنس الوجود وقد تركته هو وتركت المبيضين بالمنزل ونجوت بنفسي الى مدينة أخرى فرارا من ربكة الاثاث المشتت الذي لا يطاق معه قرار . فتجلت هنا عبقرية الشيخ أحمد التي تخلف كل ظن وتخرق كل حد وتخرج عن كل تقدير . لقد خطر لي أن أقصى ما يستطيعه الشيخ أحمد من اعجازه المعهود في هذه الحالة أن يضع الصور في غير مواضعها منحرفة نحو اليمين أو نحو الشمال وصاعدة الى الاعلى أو هابطة الى الاسفل ، فقيدت مواضعها بمسامير لا تتحول وأوصيت المبيضين أن لا يخلعوا المسامير عند طلاء الجدران ، ولكن أين يذهب بي سوء الظن بأفانين هذه العبقرية التي

تهوى أبـدا أن تداعب الظنون وتتخطى الآماد مما تحيط بـه الافكار والاوهام ؟ فقد عدت من غيبتي القصيرة فوجدت الصور والحق يقال في مواضعها تماما بلا انحراف ولا تحريف ، ولكنني وجدت أنس الوجود مقلوبا يقع فيه النيل موقع السماء وتقع فيه السماء موقع النيل ! !

وانما يبدو لنا مدى هذا الاعجاز اذا علمنا أن الشيخ أحمد من أهل ذلك الاقليم الذي قام فيه أنس الوجود ، فلو كانت « الرؤية » وحدها كافية لتصوير أثر من الآثار لكان الشيخ أحمد أولى من المصور الكبير « هدايت » بتصوير ذلك الهيكل غيبا بلا معاينة ولا استحضار ! !

وللشيخ أحمد ملكة نادرة في نسيان الاسماء ثم تحريفها وتصحيفها عند التذكر أعجب تحريف وتصحيف .

فاذا تكلم « راشد » مثلا بالتلفون في غيبتي ثم سألته : من الذي تكلم ، فمن المستحيل أن يكون المتكلم راشدا وانما هو « منشة » على التحقيق أو التقريب !

وينتهي « جاماتي » عنده الى « جماد » ، والشجاعي الى رجل من « كوم الشقافة » ، والطناحي الى الصنافي ، وذو الفقار الى زعفران ! .. وقس على ذلك سائر الاسماء .

قلت : يا شيخ أحمد . أرحني أراحك الله بالكتابة ، وأنت بحمد الله تعرفها على الاقل خيرا من معرفة الكلام ، فاذا تكلم أحد فاكتب ولا تعتمد على الذاكرة بعد الآن .

وحضرت الى المنزل فسألته : هل من أحد تكلم ؟

قال : نعم . تكلم أربعة

قلت . وهل كتبتهم عندما تكلموا ؟

فقال لي نعم ، وأحضر لي الورقة فاذا فيها البيان الشافي على هـذا النحو الوجيز . اذ ليس فيها الا هذه السطور الاربعة سطرا فوق سطر وهـي :

أحد تكلم
أحد تكلم
أحد تكلم
أحد تكلم ...

ولما تنازعني الغيظ والضحك من هذا البيان الذي لا بيان فيه ، وهذه الكتابة التي خير منها الكلام وخير منها النسيان بدا عليه العجب والاحتجاج ، وعلمت أنني المخطىء لا الشيخ أحمد المعصوم من الخطأ على طريقته العكسية الواضحة . فانني حين أقول للشيخ أحمد : « اذا تكلم أحد فاكتب ... » فليس ينبغي لي أن أنتظر غير ما فعل ، فقد تكلم أحد فقال أحد تكلم وأعاد الكرة كلما عادت الكرة . فأين الخطأ وأين المخالفة يا منصفون ؟ .

هذه أمثلة يعرف إخواننا الذين خبروا الشيخ أحمد نظائر من طرازها البديع ، والظريف في أمره بعد ذلك أنه جاءني يوما يستأذن في « أجازة » شهر للسفر الى البلد على غير عادة .

فسألته : وفيم هذا السفر الغريب ؟

قال : يا أستاذ انهم يوزعون الآن تعويضات الخزان . وأقاربي وأهل البلد يخشون الغبن وخطأ الحساب ، فأرسلوا يستقدمونني ويلحون علي في شهود التوزيع .

قلت : ومن لها غيرك يا شيخ أحمد ؟ سافر على بركة الله ، كان الله في عون البلد الذي أنت هاديه وألبق من فيه .

* * *

والشيخ أحمد كما علم القارىء ليس بسجان ولا موظف في السجن ولا زميل فيه ، فما الذي زج به في هذا المأزق المكروه ؟

الذي زج به فيه أننا تركنا له البيت وحده وأنا وأخي يوم كنا كلينا معتقلين ، وقد ظل عمدتي الوحيد في كل ما له علاقة بتدبير شيء في المنزل ،

أو احضار شيء منه حتى انتهت الشهور التسعة • ولا حاجة بي الى أن أقول انه لم يقلع خلالها عن ذكائه البارع ولا عن تزويدنا بالاعاجيب من « وحائده » وأفانينه •

فقد استطاع الشيخ أحمد بذكائه الثاقب وتجربته السنين الطويلة أن يعلم أنني أتناول الغداء نحو الساعة الثانية ولا أغير هـذا الموعد الا لسبب عارض ، ولكنه لم يستطع أن يعلم أن مواعيد السجن غير مواعيد البيت ، ولم يستطع أن يصدق السجانين حين قالوا له ان الساعة الثانية عشرة هي موعد الغداء عندهم ، لأنه لا يصدق الا ما يسمعه من الاستاذ !

وتعبوا في اقناعه بغير جدوى ، وعالجوا افهامه أن « العنبر » يقفل عند الظهيرة وأن الموظفين المنوط بهم رقابة السجن ينصرفون في هـذه الساعة ، وهو لا يفهم ولا يزيدهم على أن يقول : « ان الاستاذ لم يتناول غداءه قط في الساعة الثانية عشرة وقولوا ما شئتم فأنا لا أصدق لكم كلاما حتى أسمع من لسانه ! » وهيهات ذلك الا باذن وموعد زيارة وكتابات وردود •

وكان السجانون قد عرفوا الشيخ أحمد وخبروا منهاجه في فهـم الامور ، فولعوا بعناده واستثارته ، وأنذروه يوما لئن لم يحضر غدا قبل الساعة الثانية عشرة ليدخلنه السجن ولا يخرجن منه بعد ذلك أبدا •

ولم يحفل الشيخ أحمد بوعيدهم ولم يتقدم لحظة عن الموعد الذي اختاره لحضوره • فلما دق الباب كان السجانون على أهبة القبض عليه ، واتفق ثلاثة منهم على استدراجه وجذبه الى داخل الباب ، فأخذوا بيديه وشدوا عليه وهو يستعيذ بالله ويقاوم بقوة الجبارين وقوة الخائفين ثلاثة رجال ليسوا بالضعاف ولا بالهينين •

والشيخ أحمد لا يعلم أن دخول السجن انما يكون بتحقيق وأمـر بالقبض أو حكم من القضاء واثبات في الاوراق والسجلات ، بل كل مـا يعلمه أن من جاوز عتبة البناء المرهوب فهو مسجون لا فكاك له حتى يشاء السجـان !

فماذا ينتظر ؟ أينتظر حتى يتغلب عليه هؤلاء الظلمة العتاة ويوقعوه في الفخ الذي ليس بينه وبينه الا شبر واحد أو شبران اثنان ؟

لا وحق الاولياء ومشايخ الطرق أجمعين ! لقد حصلت بركتهم ونفخوا في عضلات مريدهم وربيبهم حتى حار السجانون من أين له كل هذه القوة التي دافعهم بها مجتمعين . فلم يستطيعوا أن يزحزحوه شبرا أو شبرين ، وأفلتوه وقد غلبوا ضحكا ، فانطلق كالسهم في ميدان القلعة لا يلوي على شيء ولا يصدق بالسلامة !

ولكن هل عدل عن الموعد وأقلع عن العناد ؟

معاذ الله ومعاذ الذكاء . لم يعدل ولم يقلع ولم يزد على أن يدق الباب في الايام التالية ويضع الآنية على مقربة منه ، ثم يرجع هو الى حيث يضمن النجاة ويأمن الظلمة العتاة ! ولم يزل كذلك حتى بلغه عني مصداق ما يقول السجانون .

وعلى هذا جرى في احضار الملابس لموعد الحمام ، فهو لا يحضرها الا أيام الحمام في البيت ، ولا شأن له بما يقولون عن مواعيدهم ومواعيد البخار الذي لا يدار في أيام الجمع ولا يختلف عن الاوقات المرتبة له على حسب الحاجة اليه ، وظل على عناده حتى أبلغته مواعيد الاستحمام كما أبلغته مواعيد الطعام .

ولا تسل عن المشقة في تعريف الشيخ أحمد بالملابس اللازمة حين يدعو الامر الى التدرج من الملابس الثقيلة الى الملابس الخفيفة بين الفصول ، فالتفرقة بين القميص الصوفي الاحمر والبرتقالي والرمادي عنده من المشكلات المعضلات ، وهو مع ذلك لا يتورع عن طلاء ما يلقاه من تمثال أو صورة عندي بالالوان التي تروقه كلما تقشرت طبقة منها واحتاجت الى طلاء . فتلك فنون لا يحجم عنها الشيخ أحمد ولا ينتظر اذني في عملها ، ولا يحتفل بالتفكير فيها أقل احتفال ، واذا ضحك أصدقائي الفنانون صانعو تلك الصور أو تلك التماثيل من فنه في التلوين

والتظليل فماذا يعنيه من ضحك الناس المغرمين بالضحك من كل شيء ؟ لقد تعود منهم أن يضحكوا حين يصنع الشيء وحين يصنع نقيضه ، فليضحكوا ما بدا لهم ما داموا لا يقطبون ولا يغضبون .

لكن بدائع الشيخ أحمد ليست كلها مضحكة ولا كلها سليمة ، فربما كان منها ما يميت وما يغيظ . وقد جاد علينا بواحدة من هذه البدائع القاتلة في السجن ثم اكتفى بها ولم يشفعها بثانية ، ولله الحمد .

فأنا أتداوى من عوارض البرد بالماء الساخن انغمس فيه بضع دقائق ثم أسرع الى لبس البرنس في الصيف أو البرنسين معا في الشتاء بغير وناء ، فاذا أبطأت ساءت العاقبة وجنيت جريرة هذا الابطاء زكاما قد يلازمني الاسابيع ، وقد يتجاوز الزكام الى ما هو أشد وأقسى .

فلما كان يوم من أيام الحمام خرجت من الحوض الساخن والتمست البرنسين والملابس فاذا الشيخ أحمد قد نسي أن يصلح بعض أكمامها وتركها مقلوبة تارة ومعدولة تارة أخرى ، وهذه هفوة صغيرة ولكنها كافية ! ! لأنني شعرت بالقشعريرة تسري في أوصال جسمي ورعدة البرد تملأني ، فأسرعت الى الحوض الساخن مرة ثانية حتى عاودني الدفء وشملتني الحرارة ، ولكن الوقت الذي قضيته في الحوض كان أطول مما يطاق ، فلم ألبث أن خرجت منه حتى غشيني الاغماء ، ولو أدركني في الماء قبيل ذلك بلمحة عين لكانت هي القاضية .

وان نسية من هذه النسيات التي يتقنها الشيخ أحمد لكافية لتوديعه مدى الحياة ، لولا امانة عزيزة تشفع له واخلاص وثيق يزكيه ، وطول خدمة مذكورة تكافيء هذه النسيات .

التسلية في السجن

لو تمت « تعليمات » السجن بحرفها في معاملتنا نحن المحكوم علينا في قضايا النشر والصحافة ، لكان معنى ذلك أنني قضيت تسعة شهور صامتا لا أنبس بكلمة واحدة ، الا أن تكون هذه الكلمة سؤالا أو جوابا لموظف من موظفي السجن في عمل من أعماله الرسمية ثم ألوذ بالصمت « البوذي » الطويل عاكفا عليه ليلي ونهاري بلا صلاة ولا قربان !

لأن ادارة السجن أوصدت على كل مسجون في قضية صحفية أو قضية من قضايا النشر باب حجرة منفردة .

وأمرت أن ينفرد كل منا في أوقات الرياضة فلا نتلاقى بمكان واحد، ولا يمر أحد منا على حجرة الآخر .

بل أمرت أن يكون ذهاب كل منا الى المستشفى لمقابلة الطبيب أو اللجنة الطبية في موعد غير موعد زملائه .

وعلى هذا كنا في « سجن انفرادي » كالذي يعاقبون بـه السجناء الاشقياء ، ونحن لا ندري ولا ادارة السجن تدري . وكنا أسوأ حالا من شرار المجرمين لأنهـم يجتمعون في ساعة الرياضـة عشرات عشرات ، ويجتمعون في المصنع بضع ساعـات ، ويجتمعون في حجرة النوم خمسة خمسة أو عشرة عشرة أو عشرين عشرين حسب اتساع الحجرات .

وهذه نقيضة أخرى من نقائض السجن وأعاجيبه ، وهو كمصر في رأي هيرودوت موطن النقائض والاعاجيب .

ومهما يكن من زهادة الانسان في اللغو والكلام ، وفي اخلاده الى

العزلة والسكون فليس السكوت تسعة شهور بالأمر المعقول ولا بالامر الهين ، وأي سكوت ؟ انه السكوت لغير عبادة يتعزى العابد بسلامها وثوابها ، وانه السكوت مع الفراغ من العمل ، ومن النظر الى الدنيا ، ومن ضروب السلوة جميعها الا القراءة ومراقبة النمل على الجدران !

لقد كنا نرى بعض المحبوسين من الموسرين القادرين على استئجار الحجرات المفروشة أثناء التحقيق يهجرون تلك الحجرات لانفرادها وعزلتها، ليشتركوا مع غيرهم في حجرة واحدة ينامون فيها على الارض بغير فراش الا الحصير من الليف الخشن ، ويعملون بأيديهم في تنظيف الأرض وغسل الآنية كل صباح ويؤثرون ذلك على السرير وحشايا القطن ، والراحة من الخدمة وامتهان النفس في الغسل والتنظيف ، لأنهم يستطيعون الكلام هنا بغير عقوبة ، ولكنهم يعاقبون اذا سمعهم الحارس يكلمون جارا لهم من النافذة أو فتحات الباب حين ينفردون في حجرة معزولة .

وقد كنت أنا من المشهود لهم « بحسن السير والسلوك » عند السجانين ورؤسائهم الموقرين ؟ لأنني كنت لا أهتم بفتح باب الحجرة ، ولا أسعى للتحدث الى أحد ، ولا أحاول الخروج أو المرور من غير مكاني المألوف ، ومع هذا تخطىء ادارة السجن اذا هي ظنت أنني أستحق شهادتها بحسن السير والسلوك كل الاستحقاق . فلو أنني حوسبت بالعدل والقسطاس المستقيم في عرف النظام الاعوج ، لخسرت كثيرا من الدرجات في تلك الشهادة .

فالحق أننا نتكلم ونتلاقى ونتسامع الاخبار على قصد وعلى غير قصد ، وان كان ذلك كله فلتات لا تخفف من قيود « السجن الانفرادي » المفروض علينا الا بمقدار يسير .

أما شرار المجرمين فقد كان مباحا لهم كل ما هو محرم علينا . فما هو الا أن توصد عليهم الابواب نهارا، حتى يتجمعوا للعب بحجارة «الدومينة» أو بحجارة النرد أو ما شاءوا من الالعاب وضروب التسلية . وقد يسأل

سائل : « ومن أين لهم حجارة النرد أو الدومينة ؟ أتراهم يهربونها من خارج السجن كما يهربون التبغ والنقود ؟ » ألا فليعلم هذا السائل اذن أنه يسيء الظن ببراعة السجناء ، فانهم قد برعوا في صناعة هذه الحجارة داخل السجن حتى صنعوها من لباب الخبز الساخن وهم في حاجة اليه . فأثبتوا بذلك أنهم يعرفون كيف يجدون اذا هموا باللعب أو مخالفة النظام، وأثبتوا بذلك أيضا أن اللعب أحب الى الانسان من الطعام .

وليس يحلو اللعب للسجناء بغير رهان . فاذا كان نقد أو تبغ أو طعام ممنوع فذاك هو الرهان المفضل على هذا الترتيب ، وان لم يكن واحد منها فلا رهان بعد هذه المتع المشتهاة أحلى وأشهى من الضرب الوجيع والمبالغة في الايجاع اظهارا للقوة والتذاذا بالسطوة ، وربما كانت لذة الضرب الكبرى عند السجين أنه يمنحه القدرة على التغلب والتعذيب وتوقيع العقاب ، في مكان لا يزال فيه مغلوبا معذبا خاضعا للعقاب .

أما الليل فالظلام يحول دون اللعب بالنرد والدومينة ، ولكنه لا يحول دون اللغط والغناء والعربدة وكل ما يحلو لسكان الحجرة ما داموا في أمان من أعين الحراس وآذانهم ، وهم على الاكثر في أمان !

* * *

وكانت تسليتي بالليل قبل أن تسمح ادارة السجن بادخال النور الكهربائي الى حجرتي أن أستمع الى لغط اللاغطين حتى يهدأ : فأسمع مصارحات السجناء بأسرار حوادثهم ومراوغاتهم تارة ، وأسمعهم يمثلون روايات التهريب واخفاء الممنوعات تارة أخرى ، وربما كان من هذه الروايات المضحك والفاجع والمقزز والمثير للسخط والنقمة ، وربما كان منها ما يستمر ليلة كاملة ويشترك في تمثيله حجرات ثلاث بعضها فوق بعض ، وكل منها في دور مختلف من أدوار العنبر . وأصلح هذه الروايات للتمثيل فيما أذكر رواية اشترك فيها أربعة أطفال ، ومهرب كبير من عتاة المجرمين ، وسجين من سجناء المحاكم المختلطة . فأما الاطفال ــ وهكذا

يسمونهم في السجن وان بلغوا الثامنة عشرة ــ فكانوا في الدور السادس أي الدور الاوسط ، وأما المهرب فكان في الدور السابع وهو أعلى من السادس ، وأما سجين المحكمة المختلطة فكان الى جانبي في الدور الارضي أي الدور الخامس الممتاز بالاطعمة الخاصة وشيء من التيسير في المعيشة .

وبدأت الرواية باتفاق بين المهرب والاطفال من جهة ، وبين الاطفال وسجين المحكمة المختلطة من جهة أخرى ، وفحوى الاتفاق أن يدلي الاطفال بخيط من خيوط الصوف التي ينزعونها من غطائهم أحيانا لتوصيل الرسائل والمهربات ، فيربط فيه السجين في الدور الارضي صرة صغيرة تحتوي قطعتين من ذوات القرشين وقليلا من الحلوى ، وعندما تصل هذه الصرة الى الاطفال ينادون المهرب فيسقط اليهم خيطا قد ربط فيه الصرة التي تحتوي لفائف التبغ المطلوبة ، وانما وثق الطرفان بأمانة الاطفال في هذه الرسالة لأنهم أطفال مخلصون لا يعرفون الخباثة ، ولا بد من توسيطهم بين البائع والشاري على كل حال لأنهم متوسطون بينهما بحكم المكان الذي لا يتحول . فاطمأن البائع والشاري الى الصفقة وبات كل منهما يمني نفسه بليلة سعيدة : فالبائع يتلمظ شوقا الى الحلوى ويترقب ثمن البضاعة التي يعاني ما يعاني في سبيل تهريبها واخفائها ، والشاري يحلم بالتدخين ويعد الانفاس في انتظار انفاسه الهنيئة ! أما بقية الممثلين في الرواية ــ وهم الاطفال ــ فلم يكونوا عند حسن الظن أو عند سوء الظن بهم فهما في هذه الحالة سواء ، ولكنهم أضمروا النية على شيء آخر وقرروا فيما بينهم أن ينوبوا عن الطرفين البائع والشاري في الاستمتاع بالتدخين والحلوى والقروش جميعا ، وهكذا كان .

فلما أسقطوا الخيط الى سجين المحكمة المختلطة المجاور لي لم يقصر الرجل في ربط الصرة ، وهمس لهم أن يرفعوها فرفعوها وهم يغالبون الضحك ، والرجل لا يستريب بضحكهم ولا يرى فيه الا أنه من مرح الاطفال حين يلهون بأمثال هذه الالاعيب . ثم لبث الاطفال

يضحكــون هنيهــة وانتظــروا ريثمــا يتحقــقون من محصول الصرة ويطمئنون الى نجاح الحيلة من ناحية الشاري ، ثم نادوا المهرب فما توانى دون أن أجاب على الفور باسقاط الحبل وفيه البضاعة النفيسة ، ثم مضت لحظة• كنت أسمع في خلالها همس الاطفال وضحكاتهم المخنوقة وشجارهم الاخوي على تقسيم الغنيمة فيما يظهر ، فلما لم تصل اللفائف الى سجين المحكمة المختلطة ولم تصل القروش والحلوى الى المهرب ، ناديا علـى الاطفال في وقت واحد وهما حذران متوجسان ، ولم يخطر لهما أول وهلة أنهم قد غدروا بهما ، وانما خطر لكل منهما أن يرتاب في صاحبه ويسأله على الرغم مما في رفع الصوت من المجازفة والتعرض للعقوبة والمصادرة ، فاذا بكل منهما يقسم أغلظ الايمان على بره بوعده ويحرق الارم غيظا من أولئك الصبية الملاعين ! ! وأكد لهما الصدق فيما يقولان سكوت الصبية الملاعين وانفجارهم بالضحك كلمـا غلبهم وأعياهم أن يغالبوه ، وانقلب النداء شتما ووعيدا والحافا شديدا • ولا فائدة لكل اولئك ولا جواب غير الهمس فالضحك المخنوق فالقهقهة الداوية من حين الى حين ، فلم يبـق للرجلين الا أن يتجرعا غصة اليأس ويستعيضا الله فيما كانا يحلمان به من لذة وهناءة ، وسكتا وهما كظيمان مقهوران •

لكن الرواية لم تنته عند هذه النهاية ، وانما انقضت فترة قضاها الاطفال في سرور وفرح بالغنيمة ونجاح الالعوبة ، ثم انبعث صوت جاد أو متكلف للجد من حجرتهم ينادي المهرب مرة بعد مرة ، فخف المهرب الى الجواب ، ووثب الى النافذة كأنه حسب أنهم ندموا علـى غدرهم وفكروا في رد الامانة اليه • فقال متوددا : « ما بالك يا فلان ؟ لم كنت لا تجيب ؟ » فضحك الغلام الخبيث وقال : « كنت نائما » • فأرسل المهرب عليه عشرات من التحيات لأبيه وأمه وصاح به : « أو تنام في غمضة عين ؟ ومن ذا الذي كان يضحك ويقهقه منذ هنيهة ؟ » ثم أخذ في ملاطفته وعاد يسأله : « ماذا تريد ؟ هل أسقط لـك الخيط ؟ » قال الغلام الخبيث :

« نعم •• وتسقط عينا » أي كبريتا باصطلاح السجناء • فأدرك المهرب أنهم يعبثون به ويكايدونه ! وقد كانوا حقا يكايدونه ويبالغون في المكايدة، لأنهم كانوا قد دخنوا اللفائف جميعا ، وأشعلوها بالشرار الذي ينقدح في خيط الصوف من ضرب الارض بصفيحة الرقم المعروفة هناك «بالدوسيه» • فلم تكن بهم حاجة الى الكبريت ولا حاجة الى النداء على المهرب من أجله ، ولكنهم حرصوا على الاستمتاع باللعبة الى آخرها ، وتركوا صاحبهم يفرغ ما عنده من السباب والتهديد ، وهم يمرحون ويمزحون •

وتلك رواية من روايات التهريب التامة لم يقاطعها أحد دون تمامها الى الفصل الاخير منها كما يحدث أحيانا في أمثالها • ومسرح السجن غير ضنين بأشتات من هذه الروايات التي نشهدها نحن ليلة ويشهدها غيرنا ليلة أخرى ، ولكنها لا تنقطع عن شهودها المتفرقين في معظم لياليه •

* * *

وتيسرت لي القراءة طرفا من الليل بعد دخول النور في الحجرة فكنت أقرأ حتى أمل الصفحات فألهو بمراقبة النمل على الجدران ويطيب لي هذا النوع من اللهو لأنني أستأنف به أياما من الطفولة كنت أقضيها في هذه المراقبة • وأكاد أصدق يومئذ أنني أعالج ضربا من الطلاسم التي كان يعرفها سليمان عليه السلام •

وذلك أن تلميذا من أصحابنا في المدرسة كان يقول لنا انه يحفظ قسما يتلوه على النمل ويرسم له خطا فلا يتعداه ، ومن عصى القسم وحاول تعديه سقط وحلت به لعنة سليمان •

واحتلنا على صاحبنا التلميذ حتى باح لنا بذلك القسم ، فاذا هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضىء فتحصل المعجزة • وقد رأيناه فعلا يحز للنمل خطا على الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط أو يسقط دونه ، وجربنا نحن القسم فصحت التجربة ، وأيقنا برهة

أننا نملك سرا من أسرار السحر المتصرف في خلق من خلائق الله ، حتى خطر لنا يوما أن نرسم الخط ولا نتلو القسم ، فما راعنا الا أن تصح التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر ولكنا أسفنا على السحر الذي فقدناه !

ومن ذلك اليوم ونحن نمتحن النمل بالخطوط لنعرف كيف « يفكر » في اجتياز العقبات واللف حول الدوائر والمربعات ، وكنا نحيطه بدائرة مفتوحة ودائرة ثانية مفتوحة من جانب آخر ونحيط الدائرة الثانية بدائرة ثالثة لا فتحة فيها ، ونراقب كيف يهتدي الى الفتحات في خروجه حتى يصل الى الدائرة الكبيرة وكيف يهتدي الى هذه الفتحات بعينها حين يرتد عن الدائرة المقفلة ، ونكرر هذه التجربة عشرات المرات ، فلا نرى نملة واحدة « تفكر » في الرجوع الى طريق الفتحة التي تركتها منذ هنيهة ، فانتهى بنا الامر الى أن فقدنا اعجابنا بذكاء النمل الموصوف كما فقدنا السحر أو الوهم الذي سلطنا على هذه المخلوقات ، وساءنا أن نعلم أن هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء انما تعمل بغير « تفكير » ! كأنها من الآدميين !

* * *

وكانت التسلية بمراقبة الآدميين ميسرة كالتسلية بمراقبة النمل على الجدران ، ولكن أين هم الآدميون الذين يستحقون المراقبة داخل السجون ؟

انهم أرقام كما وسمتهم ادارة السجن ولم تظلمهم كثيرا في هذه السمة . فقد يمر بك المئات بعد المئات من تلك الارقام دون أن يبرز من بينها رقم واحد بشخصية انسانية وملامح نفسية ، لأن « التفاهة » لعنة غالبة على مجرمي « سجن مصر » الا النادر الذي لا يقاس عليه ، ومن كان منهم ذا « شخصية وملامح نفسية » فالاغلب أن يجيئه ذلك من طريق الجنون أو الشذوذ النافر ، خلافا لسجناء طرة وأبي زعبل الذين يجتازون بسجن مصر في انتظار الافراج بعد زمن قليل ، فان « الشخصيات » بين

أصحاب الجرائم الكبيرة أكثر عددا من « شخصيات » السرقة الخسيسة والعدوان الوضيع ، وقد رأيت من هؤلاء وهؤلاء نماذج قليلة سأرجع الى الكلام عنها في بعض هذه الفصول •

على أن الانسان يراقب الناس كما يراقب جميع الاشياء داخل السجن وهو « بنصف نفس » كما تقول في أحاديثنا العادية ، أو يراقبهم وهو ينوي التأجيل كمن يدخر الزاد المستطاب لساعة في المستقبل غير الساعة التي هو فيها ، فينظر اليهم وكأنما بينه وبينهم مسافة أشهر وأيام ، ويمتلىء بالمشاهد والتجارب وكأنه الجمل في الصحراء يختزن الماء في جوفه حتى يشربه مرة أخرى الشرب الذي ينتفع به ويشعر بريه ، وربما ازدحم وعيه الباطن بالتجارب كأقوى وأثبت ما تكون التجربة ، ولكن وعيه الظاهر لن يبرح كالجاهل أو المتجاهل الذي لم يسمع الا بنصف الخبر ولم يشارف التجربة الا من مسافة قصية •

* * *

الزيارة او برج بابل

كان التعجب صعبا على آبائنا الاولين على ما يظهر ، لأنهم حصروا عجائب هذه الدنيا في سبع لا أكثر ، وحسبوا من هذه العجائب « برج بابل » الذي كان سكانه لا يتفاهمون لأنهم يتكلمون بلغات كثيرة •

وكل بيت على الارض هو « برج بابل » عجيب يأوي الناس منه الى مكان واحد ، ولا يتفاهمون فيما بينهم وان تكلموا بلغة واحدة • لأنهم يفترقون في ألوان الحياة أبعد ما يختلف انسان من انسان : بين امرأة ورجل ، وشيخ وطفل ، ومهموم ولاعب ، وقديم وحديث ، ولا توجد اسباب للافتراق بين عقل وعقل وشعور وشعور أبعد ولا أوسع من هذه الاسباب التي تجتمع في بيت واحد •

كل بيت هو « برج بابل » لا يحتاج الى أكثر من « قاموس واحد » ليصبح أعجوبة من تلك الاعاجيب التي أحصاها آباؤنا الاقدمون على أصابع يد واحدة وأصبعين اثنين من اليد الثانية !

ولكنني أحسب أن برج بابل يحتاج الى صورة هزلية تمثله كما نمثل بعض الناس في الصور الهزلية بأنف أطول من أنوفهم الطويلة ، أو رجل أقصر من أرجلهم القصيرة ، كلما تعمدنا المبالغة التي تعيننا على ابراز الحقيقة •

ولا أحسب أن فنانا يجد للبرج الدائر صورة هزلية أظرف وأصدق من ذلك المكان المعروف في كل سجن بقفص « الزيارة »

لأنه المكان الذي يتكلم فيه الناس بلغة واحدة •

ويتكلمون بأعلى ما في وسعهم من زعيق وصريخ •

وتصغي اليهم على مسافة ثلاثة أشبار فلا تفهم ما تسمع ولا هـم يفهمون ما يسمعون •

وثق أنهم لا يتكلمون في الفلسفة ، وما أنت في ذلك بحاجة الـى توكيـد •

وثق أنهم لا يصطنعون الالغاز والمعميات في التعبير كما يصطنعها المتخاطبون أحيانا بالاصفار والرموز •

ولكنهم يتكلمون في أبسط الامور ، ويجتهدون غايـة الجهـد في التوضيح والانصات •

ومـع ذلك كله لا يتفاهمون بالكلمات كمـا يتفاهمون بالظنون والاشارات •

واذا شاء لك حسن الحظ ـ أو سوء الحظ ـ مرة واحدة أن تشهد قفص الزيارة عرفت سر هذه العجيبة ، وعرفت أنها كسائر الاسرار مـن أبسط الاشياء ، لأنها الشيء الذي لا يكون غـيره ، وهكذا ينبغي أن يكـون •

أربعة أقفاص يقابلها من الجانب الآخر أربعة أقفاص مثلها على مسافة أشبار ، وفي كـل قفص رجل أو اثنان أو ثلاثة ، وأمامهم جميعا دقائـق معدودات يقولون فيها كل ما أعدوه للقول في شهور أو أسابيع ، ويحب كل منهم أن يقول كل ما عنده وأن يسبق الآخر الى افراغ ما في جعبته ، ويتواصى كل منهم قبل دخوله الى القفص أن يخفض صوته ولا يغطي على صوت جاره •

ولكنهم لا يبدأون حتى يختلط بينهم الكلام وتأخذهم العجلة فاذا هم من حيث لا يشعرون قد انتقلوا من الهمس الى زعيق المصابين بالصمم المغلق ، واذا بالسامع من وراء الجدار يسمع سؤالا عن الزرع وجوابا عن السوق وكلمة عن الابناء والبنات وكلمة عن الماشية والانعام ، ولا يدري

ماذا جواب ماذا ولأهم يدرون مــن السائل ومن المجيب ، الا أن يرى المتحدثين رأي العين فيفهم بالظن من ملامحهم واشاراتهم ما يتخاذل دونه الكلام ، أو أكثر الكلام •

وهذه هي الزيارة التي يتشوف اليها المسجون ويحسب دوره فيها باليوم والساعة ، لا لأنه يسمع ولكن لأنه يرى ، ولا لأنه يعني كثيرا بمن يراه ولكن لأنه ينفذ بهذه الرؤية الى العالم الخارجي ولو بعض النفاذ •

وعلى هذا الشوق من المسجونين الى أيام الزيارات لا تجد «مصلحة السجون» سريعة الى شيء كسرعتها الى انتحال الاعذار لالغاء الزيارات عامة بحجة المرض تارة وبحجة الوباء تارة أخرى • فما هو الا أن يشاع أن مرضا معديا ظهر في ناحية من أنحاء القطر حتى ينتهي خبر هذه الاشاعة الى كل مسجون في كل زاوية من زوايا السجون ، لأنه يصغي الى «برج بابل» فلا يسمع فيه لغطا ولا ركزا ، وما حاجته بعد ذلك الى مطالعة الصحف ونشرات الاطباء !

قال لي مسجون من مدمني المخدرات حجبوه في اللحظة الاخيرة عن زيارة كان يتوقعها منذ أسابيع : انني يوم ساقوني الى السجن كان في بيتي اثنان مريضان بالحمى ، فلماذا لم يغلقوا في وجهي باب السجن ذلك اليوم ؟

قلت : انه لمنطق سليم ! فان الحميات والامراض وأوبئة العالم بأسره لن تحجب عن أبواب السجن هذا المدد الذي يتدفق كــل يوم من خضم المجتمع الواسع ، ولكن للمتهمين والجناة على ما يبدو من هذه التفرقة في المعاملة « خاطرا » عند مصلحة السجون ليس للزوار الابرياء •

وفي حساب بعض السجناء أن « الزيارة » قيراط اذا كان الافراج أربعة وعشرين •

قال بعضهم لواحد من أولئك السجناء الذين فجعتهم مصلحة السجون في بعض هذه القراريط : لا تعلم « المصلحة » هذا الحساب فتعطيك أربعا وعشرين زيارة و « تأكل عليك » الافراج ؟ !

الطعام ومطالب الجسد

أيسر تجربة للمسائل العامة خليقة أن تؤكد لنا صحة هذه الحقيقة المأثورة ، وهي أن المبدأ لذاته ليس بالمهم ، أو ليس بالشيء الذي يستحق الجانب الاكبر من الاهتمام والدراسة ، وانما المهم قبل كل مهم هو تطبيق المبادىء وتنفيذها ، فان التطبيق في أيدي المصلحين قد يصلح المبادىء الفاسدة ويقوم اعوجاجها ، كما أنه قد يفسد المبادىء الصالحة ويعكس مقاصدها اذا هو جرى على أيدي العجزة وأهل الفساد •

فليس الاصلاح اذن منوطا بالقاعدة والنظام وانما هو منوط بضمان التطبيق ، وحسن الرقابة على التنفيذ •

وهذه الحقيقة تسري على مسألة الطعام في السجون أشد من سريانها على مسائل الدواوين الاخرى ، لأن الاغراء حاضر والشكوى عسيرة وتحقيقها أعسر ، وخوف السجناء من الشهادة الجريئة خوف غير مستغرب من أناس مهددين مملوكين في قبضة الحراس والرقباء ، موسومين بالكذب والخداع عند المشرفين عليهم والموكلين بشئونهم ، موصوفين بضعف الخلق ، وضعف النخوة ، وضعف الغيرة على الحق ، وضعف الابانة عنه ، فاذا هم أحدهم بالشكاية ثناه ضعفه فأحجم ، واذا ألح عليه الضيم فأقدم بعد وجل وتردد لم يستطع الافصاح ولا اقامة الدليل ، ولم يجد من العطف والتشجيع ما يغنيه عن حسن البيان وقدرة الاثبات ، وقد يخذله زملاؤه طلبا للسلامة وايثارا للزلفى ومرضاة الحراس والرقباء ، فالحاجة الى مراقبة التنفيذ في مثل هذه الاحوال أشد وألزم ، والثقة بالمبادىء والنظم أقل ثقة تعهد في مبدأ أو نظام •

ولو سئلت رأيي في تعديل طعام السجن من حيث المبدأ والنظام لما اقترحت من التعديل غير القليل : زيادة جزء من المواد السكرية وجزء من الفاكهة والسماح في الشتاء بالمشروبات الساخنة ، وما عدا ذلك فهو غذاء صالح كما هو قائم الآن ، لأنه يقوم على البقول عامة الاسبوع ، والخضر النيئة مرتين في الاسبوع ، وتستبدل الخضر المطبوخة مع اللحم بالبقول مرة أو مرتين على أقصى تقدير ، وهذا على قلته كاف لحاجة الجسم نـاف للضرر الذي يصيب الانسان من نقص بعض الاصناف ٠

لكن الاهتمام جد الاهتمام انما يكون بالرقابة على تنفيذ هذا النظام ، فان العدس قد يكون صحيحا وقد يكون منهوكا بالسوس ، والخضر النيئة قد تكون ذابلة هزيلة وقد تكون ناضرة جزيلة ، واللحم قـد يكون لحم حيوان شائخ أعجف سقيم ، وقد يكون لحـم حيوان فتى فاره سليم ، والسمن قد يكون مغشوشا مخلوطا وقد يكون من اللبن النقي الممخوض ، والخبز قد يصنع من الدقيق النظيف وقد يصنع من الدقيق المشوب بالحصى والتراب ، والفرق كل الفرق ما بين عدس وعدس وخضر وخضر ، ولحم ولحم ، وسمن وسمن ، وخبز وخبز ، وان كانت كلها في العنوان سواء ٠

فالرقابة هنا هي أس النظام ، والحذر من العبث والاهمال هو أولى الامور باليقظة والانتباه ٠

كذلك المرضى المستحقون للبر والرحمة قد يصلون الى مكانهم من المستشفى بغير عناء ولا كلفة اذا حسنت الرقابة واستقام الاشراف ، وقد يحرم هذا الحظ من هو أهله ويعطاه من هو غير أهله اذا التوت الامور واستفاض الخلل والاهمال ٠

ومن الحق علي أن أقرر هنا أنني شكوت مرة من بعض الخلل الخطير فلم ينقض يوم على الشكوى حتى أزيلت أسبابها وحيل بين المسيء ومـا يسيء ، ومن الحق علي كذلك أن أشهد لكثير مـن الاطباء والموظفين في سجن مصر بالجـد والامانة والاخلاص وبـذل الوسع في تخفيف الشقاء

وتلطيف الآلام ، فاذا قضيت هذا الحق وهو فرض لا أنساه فمن حق الضعفاء علي أن لا أنسى حاجتهم الى الرقابة الناجعة ، ولا أنسى سهولة الاجحاف بهم والقسوة عليهم ، اذا آلت الامور الى غير القادرين وغير المخلصين .

* * *

على أن مسألة الطعام في السجن ــ سواء صلح نظامه أو افتقر الى التعديل والتنقيح ــ مسألة لم تغب عن أذهان الحاكمين ، ولم يغفلوا عن تقريرها بالمبدأ والقاعدة تارة وتعهدها بالرقابة والاستطلاع تارة أخرى ، ولكن العجيب كل العجب أنهم قد غفلوا وتغافلوا جميعا في مصر وفي معظم بلاد العالم عن وظيفة جسدية ليست في صميمها بأقل من وظيفة التغذية وقد ترجح عليها بما لها من الاثر السريع في الاخلاق والآداب ، ونعني بها وظيفة الغريزة الجنسية وحاجة الرجل الى المرأة في الشهور أو السنين الطوال التي يقضيها بمعزل عن النساء ، فهل في وسع طبيب أن يجيز تعطيل هذه الوظيفة في جسد صحيح ميسور الغذاء ؟ وهل في وسع حاكم أن يزعم أن السكوت عنها أو اسبال الستار عليها كاف لالغائها وكفيل بمحوها واخفائها ؟ وهل في وسع الحاكم والطبيب أن يرضيا عن شذوذها وتحولها كما تشذ وتتحول في مئات من الاحوال ينتهي خبرها الى الحراس والرقباء ، وفي ألوف من الاحوال لا ينتهي خبرها اليهم وان كانت في حكم المعلوم المفهوم ؟

ليس السجناء نساكا ولا رهبانا فيطالبوا بزهد النساك والرهبان ، وليس من الصلاح لهم أن يطالبوا بذلك وهم لا يؤمنون بنية الزهد ولا يستمرئون سلوى العفاف ، ولا يقصدون النسك ولا الرهبانية . فمن أعجب الدلائل على كسل العقل الانساني واعتياده أن يحل المشكلات بالاعراض والتغابي هذه الغفلة السادرة عن المسألة الجنسية في السجون ، وهي مشكلة لا تحل بالسكوت ولا تحل بالشذوذ ولا بد لها من حل ، وليس من يتصدى لحلها بين الرؤساء المسئولين كأنما هي شيء غير موجود !

حدث في بعض الليالي أن استيقظ السجن كله على ضجة هائلة لا يتميز منها صوت بين صليل عشرات من الجرادل والكيزان تتساقط على الارض أو تصطدم بالجدران ، ويتخلل ذلك صيـاح المجروحين وعويل المضروبين وزمجرة كزمجرة الوحوش وضحك كضحك المخبولين ، ثـم جاء ضابط السجن وفتح الحجرة التي انبعثت منها هذه الضجة فاذا بالذين فيها وعدتهم نحو الثلاثين ممن يسمونهم بالاحداث عرايا متهتكون واذا بالحادث كله مسألة من مسائل الشذوذ .

ويتكرر هذا الحادث وان لم تتكرر هذه الضجة ، ويبطل الحياء منه لكثرة التكرار والابتذال فيرويه بعض المتهمين على مسمع من السجناء والحراس بصفاقة كأنها صفاقة الحيوان ، ومنهم من كان يساق الى الجلد فينعى على زميله أنه خائن وأنه حانث في يمينه ، ولا يحسب أن في الامر غير ذلك ما يشين ، وربما وقعت هذه الحوادث وفي الحجرة أكثر من خمسة أو ستة ، لأن الحياء منها يوشك أن يكون في حكم المعدوم .

ولست أذكر أنني قرأت كتابا واحدا عن ذكريات السجون الا وفيه اشارة الى الشذوذ الذي يدفع اليه كبت الغريزة الجنسية ، فهو مذكور في كتاب دستيفسكي « منزل الاموات » وفي كتاب مكارتني Macrtney « الحيطان لها أفواه » ، وفي كتاب الدكتور هامبلين سميث Homblin Smith عن حياة السجون ، وفي كتاب بلير نيلز Blair Niles عن المسجونين بجزائر الشيطان ، وفي كتاب جوزيف فيشمان Fishman عن المسألة الجنسية في السجون ، وفي كتاب فكتور نلسون عن أيام السجن ولياليه ، وفي الكتب والمجلات التي عقبت على بعض حوادث الاصلاحيات وسجن جوليت joliet بالولايات المتحدة ، وهي كتب تصف سجون آسيا وأوربا وأفريقيا وأمريكا ولا تقتصر على بيئة واحدة ولا على زمن واحد ، فالآفة اذن آفة السجن حيث كان ، والامر أعم من أن يعالج بالمداراة والنسيان .

وقد عولجت هذه الآفة بأساليب مختلفة في أمـم شتى ، فسمحت

حكومة الفيلبين للسجين بعـد قضاء فترة يسيرة أن ينتقل الى مستعمرة تأديبية يتصل فيها بأهله وذويه ٠

وقررت حكومة سلفادور أن تسمح لمن تشاء من زوجات السجناء أن تزوره زيارات أسبوعية في حجرات مستقلة ٠

واعتمدت الولايتان الامريكيتان ألاباما ومسيسيبي Alabama and Mississippi نظام الاجازات بين حين وحين لمن يحسن سلوكه من السجناء، ولم يختل في ملاحظة الموعد المضروب لانتهاء الاجازة غير سجين واحد من مئات يقضون اجازاتهم كل عام ٠

وأضافت ولاية مسيسيبي الى ذلك أنها تمنح السجين فترة تجريبية من شهر الى ستة أشهر اذا استقام في أثنائها واهتدى الى عمل صالح يرتزق منه مدت له التجربة سنة فسنة الى آخر المدة المحكوم بها ، وأعفي مـن العقوبـة ٠

أما في روسيا فقد عولجت هذه الآفـة بطريقة لا يمكن أن تقرها حكومة تؤمن بالدين ونظام الاجتماع الذي خرج عليه الشيوعيون ٠ قال الصحفي المشهور نيجلي فارسون Negly Farson في كتابـه « طريـق الفضولي » :

« أخبروني في الاصلاحية التـي بظاهر كييف أن تجربة السماح للسجناء ــ ومعظمهم من القتلة ــ بالذهاب الى قراهم ابان الحصاد تجري على ما يرام ، لأنهم يعودون بلا استثناء ٠ وأمامهم تجربة أخرى وهي أن يأذنوا للسجين العامل في الحقول أن يملي على الحارس أسماء صديقاته البنات في كييف ، فيجيز الحارس واحدة منهن الى حيث تلقى السجين ، وتدار الظهور وتغمض العيون عندما يوغل الفتى وفتاته في الغاب » ٠

ويقال انهم يعتمدون على هذه التجربة في محو الشذوذ الجنسي من السجون ٠ فان بقي منه أثر فكالذي يبقى في المجتمع الطليق بين المطبوعين عليـه ٠

الا أن الروسيين المحدثين قد عالجوا شذوذا بشذوذ ،وأدنى من ذلك الـى العرف والفائدة أن يباح للسجناء الخروج مـن السجن في فترات محدودة ، وأن يعتبر اطلاقهم حينئذ مكافأة لهم على حسن السلوك ولا سيما في المسائل الجنسية ، ولا شك أن السجناء يحتاجون الى ترك سجونهم فينة بعد فينة لمطالب كثيرة غير هذا المطلب ، تنفعهم وتنفع ذويهم وقـد تخفف أعباء الزيارات عليهم وعلى ادارات السجون ، ولعل التجربة تنفعهم أيضا فيما لا يقع الآن في الحسبان من تقويم خلق واحياء عبرة وتجديد ثقة وتشويق الى نعمة الحرية . ومهما يكن في التجربة من حرج محتمل أو مقطوع به فهو دون الحرج الذي يصيب النفوس والابدان مـن اكراه الغرائز وفرض الحرمان أو الشذوذ على من لا يحمده ولا يبتغيه .

الوقت

الوقت أعدى أعداء السجين ، فلو اهتدى الى طريقة يخلص بها من وقته لاهتدى الى طريقة يخلص بها من سجنه .

الوقت في كل مكان من ذهب كما يقولون . الا في السجن وما شابه السجن ، فهو من رصاص ان أردت ثقلته وبشاعة اسمه ، وهو من تراب ان أردت رخصه ومضايقته ، والرغبة في كنسه !

الوقت أثقل شيء على « وجدان » السجين وأخف شيء على لسانه : كل دقيقة فيه محسوسة محسوبة ، وكل دقيقة فيه حسبة يراد اسقاطها من الحساب ، وما هكذا يكون الوقت في غير السجون .

سل من شئت بين ألوف السجناء عما بقي له من مدة سجنه وثق أنه يغالطك في الجواب ، وثق أنه غالط نفسه قبل أن يغالطك مرات ، بل ثق أنه لا يغالطك الا ليستعين بذلك على مغالطة نفسه !

سألت أحدهم كم بقي لك من السنين ؟

فقال ثلاث ، وأنا أعلم أنه قد بقيت له خمس سنوات لا تنقص الا بضعة أيام . وانما القاعدة عندهم أن يسقط السنة التي هو فيها والسنة التي يخرج في نهايتها ، ولا يحسب الا ما بين السنتين !

ولهم في تقصير المدة على اللسان أساليب بعضها مصطلح عليه وبعضها من اختراع كل سجين على حسب ذكائه وملكة استنباطه .

سألت سجينا بقيت عليه سبعة شهور : كم بقي عليك من أشهر ؟ فقال : الربيعان والجمادان ورجب وشعبان !

قلت أو تخرج في شعبان ؟

فقال : سأخرج في عفو العيد ! أي في آخر رمضان •

فهو قد جمع الربيعين والجمادين في اسمين بدلا من أربعة أسماء ، وأسقط شهر رمضان كله كأنه لا يعد في الزمان •

وأعرف سجينا كان سيخرج يوم الثلاثاء ، فلما بقي على خروجه ثلاثة أشهر أخذ يحسب المدة الباقية بالاسابيع ويختم الاسبوع بيـوم الاربعاء ، حتى اذا وصل الى الاربعاء الاخيرة لم يحسب ما بعدها وأسقط بذلك ستة أيام •

وكان لي جار مررت به أودعه قبـل خروجي بيوم ، فقال لي انـه سيخرج بعدي بخمسة عشر أسبوعا • وأشار الى خطوط على الحائط الى جوار النافذة بعدة الاسابيع الباقية • فعمدت الى خطين منهما فمسحتهما وقلت له : انني أسقطت عنك هذين الاسبوعين كرامة لهذا التوديع ! ! فوالله لقد سر بذلك كأنني مسحت الاسبوعين في مدار الايام ، وشكرني على هذه النية أو هذه الامنية ، وأحسبه قد عالج مشقة مرهقة في اعادة الخطين الى مكانهما ، لأن هذه الاعادة تبدو له كأنها زيادة أسبوعين !

وعلى هذه المغالطة الشائعة لن تجد سجينا واحدا يجهل الحقيقة أو يجهل عدة ما بقي له من الايام باليوم ولو كان الباقي عدة شهور ، واسأل من شئت منهم على غرة : كم بقي لك من يوم ؟ فاذا هو يجيبك توا بلا تفكير ولا ابطاء ! ! واياك أن تستكثر هذه الايام أو تظهر بالدهشة والاسف ما يدل على استكثارها وان كانت كثيرة • بل كل ما يمكن أن تقول في لهجة الاستخفاف : تهون ! فيقول لك : لا هنت ، أو يكرر الكلمة على مسمعك قائلا : تهون ! تهون !

واذا دخل الليمان سجين محكوم عليه بخمس سنوات أو نحو هذه المدة قالوا له : انما أنت زائر ! واحتقروه كما يحتقر ساكن البيت ساكن الخان النزيل ! وأقنعوا أنفسهم بهذه المغالطة أن الخمس سنوات في الليمان خطب يسير •

والشأن في هذه الخصلة شأن جميع السجناء بلا استثناء عالم أوجاهل وذكي أو غبي ومجرب أو غرير • فكلهم يسوسون مشكلة الوقت على هذا المنوال،وكلهم يألفون المغالطة هذه الالفة ، وكلهم يستكبرون ما مضى ويستصغرون ما سيأتي وسوف يأتي الى يوم الافراج ، وهو يوم محقق الوصول عندهم جميعا كأنما الموت قدر مؤجل الىما بعد وفاء المدة ، أو كأنما الانسان لا يخرج من دنياه الا بعد خروجه من سجنه أو منفاه !

قال الكاتب الروسي الكبير « دستيفسكي » يصف منفاه وسجنه في سيبيريا : « من اليوم الاول بدأت أحلم بيوم الخلاص ، وجعلت هجيراي أن أحصي ألوفا وألوفا من المرات على ألوف وألوف من الطرائق والانماط مقدار أيـامي التي سأقضيها في المعتقل ، وكنت أفكـر في ذلـك دون غيره ، وكل من حرم الحرية فترة محدودة من الزمن فانما يفكر على هذه الوتيرة ، واني من ذلك لعلى أتم يقين » •

وقال في وصف الايام الاخيرة : « لقد نسيت أمورا كثيرة ، ولكنني أذكر ـــ ويا لشدة ما أذكر ـــ كم كانت الساعات في السنتين الاخيرتين بطيئة بطيئة وكم كانت الايام حزينة حزينة ، لا يلوح عليها أنها ستقترب من مساء ولا تزال كأنها خضم من الماء ينحدر قطرة فقطرة ، واني لأذكر كذاك أنني كنت مفعما بشوق طاغ الى البعث والنشور مـن هذا القبر زودني بقوة على الصبر والانتظار والرجاء ، ومن ثـم تعودت الجلـد والاحتمال وعشت على الترقب والامل ، وعددت كل يوم عابر ، فان بقي من الايام ألف فقد أشعر بالارتياح لأن يوما قد مضى ولم يبق الا تسعمائة وتسعة وتسعون ! »

وهكذا تعتصم النفوس بالمغالطات ويصيح المستغرب :

هل أغالط نفسي ! كأن الانسان لا يغالط الا غيره ! وهو لنفسه في الحقيقة أول المغالطين !

يوم الافراج

يوم الافراج •

أو يوم البعث والنشور •

أو يوم الحرية •

أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذي انتظره مئات الايام أو ألوف الايام ، ويحسبون أن المسجون اذا قارب فجره لـم تغتمض عيناه سرورا بلقياه وأوشك أن يطير فرحا بالوصول اليه ! وهم على حق فيما يحسبون لو أن الشعور مما يقاس بأمثال هذه المقاييس التي تقاس بها الاحجام والارقام • ولكن الشعور يجري على منطق غير هذا المنطق وينقاد لأحكام غير هذه الاحكام • فيوم الافراج يوم لا تهتز له نفس السجين بسرور عظيم ولا تقبل فيه على موعد جديد • وسبب ذلك هو بعينه السبب الذي يحسبونه جالبا للفرح واللهفة والتهلل والاغتباط ، وهو أن السجين قد انتظره مئات الايام أو ألوف الايام •

يظل السجين ينتظره ويطيل انتظاره ويتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبينه بالاشهر والاسابيع والايام والساعات ، ويقدر ما يصنعه فيه ويعيد التقدير ويعيد الاعادة ولا يفكر طوال ساعات الفراغ أو ساعات العمل في شيء غير هذا التفكير الدائم الدائب الذي يستنفد كل صورة وكل احتمال وكل خيال : حتى اذا جاء اليوم الموعود اذا بالسجين يراه كأنه وجه قديم طالما رآه وأدمن النظر اليـه وعرف ملامحه وقسماته خفية وظاهرة وكبيرة وصغيرة ، ولم تبق منه لمحة واحدة لم يرها ويحقق رؤيتها بدل المرة

عشرات ومئات ، فهو منظر من مناظر الماضي السحيق المتغلغل في القدم والالفة ، وليس بمنظر ظريف ولا بموعد جديد .

والمساجين ينظرون كل يوم الى المفرج عنهم ويعجبون لهم ما بالهم لا يطيرون ولا يبتهجون ! ويحسبونهم يتوقرون ويكتمون ما يخامرهم من شعور . حتى اذا جاء يومهم في الافراج عجبوا لأنفسهم بعد أن كانوا يعجبون للآخرين . وهكذا كان من حظ بني الانسان أن يستنفدوا السرور بالمتعة التي تطول الرغبة فيها ويطول انتظارها ، فلا يستشعرون السرور الصحيح الا بأنصاف الآمال أو المفاجآت التي لا تخطر على البال !

ويخيل الي أن أبخل البخلاء اذا انتظر مليون جنيه بعد عشر سنوات وهو على يقين من الوصول اليه عند موعد محقق لا خلاف فيه لأصبح هذا المليون وكأنه مبلغ في الخزانة داخل في الحساب ، لا يشعر بالزيادة عند وروده ولا يشعر بفقده قبل يوم الموعد المنظور ، فهو ضائع من حسبانه في حالتي الترقب والاستيلاء عليه ، وهو أقل من مائة جنيه يغنمها ويشعر بزيادتها ولم يحسب لها ذلك الحساب الطويل .

على أن اليوم — سواء عددته من أيام السعادة أو من أيام الفتور وقلة المبالاة — هو يوم ينطبع في الذاكرة وينطبع معه كل ما يلازمه من المناظر والمسامع والاحاسيس ، فهو محسوس به احساسا عميقا شديدا راسخا في قرارة الوعي والبديهة ، وذلك شيء أندر جدا من المسرات وأندر جدا من الاحزان .

واذا أراد الانسان أن يشعر بأغوار هذا العمق فما هو بقادر على ذلك الا اذا فوجيء في اللحظة الاخيرة بتغيير في الموعد أو خروج عن خط الانتظار المرسوم : هنالك يعالج شعور الفقد والشك بعد شعور الاطمئنان واليقين ، ويعلم أن تأخير ذلك اليوم ساعات معدودات هو بمثابة الحرمان المباغت من أعوام لا يحدها الاحصاء . وقد رأيت سجينا يركبه البؤس والكرب والقنوط لأنهم أوشكوا أن يؤخروه يوما واحدا لخطأ في المضاهلة

بين الاشهر العربية والاشهر الافرنجية ، فلما ردوا له ذلك اليوم الواحد اذا به يشعر بالخلاص منه أشد من شعوره الاخير بالخلاص من الاشهر والسنوات •

جاءني مأمور السجن عصر اليوم الذي سأغادر السجن في غده ، وقال لي انه لا يعلم في أي ساعة سيكون الافراج ، فيحسن بي أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وانه لهذا سيرسل لي الحلاق بعد هنيهة ليحلق رأسي ولحيتي التي مضت عليها ثلاثة أيام ، ولا يحب رجال السجن أن يخرج السجين من عندهم على هذا الحال ، لأن رؤية اللحية الطويلة تلقي في روع الناس أن السجين خارج من مكان يكثر فيه الاهمال وتقل النظافة والنظام •

والحلاقون في السجن هم حلاقون مسجونون يزاولون هذه الصناعة ويحسدهم أصحاب « الاشغال » الاخرى لأنهم يرون أن الحلاقة عمل خفيف لطيف لا مشقة فيه ، وكانوا يزوروننا في الحجرة مرتين كل أسبوع فتسمع منهم قصص السجن بجميع أنحائه لأنهم يطوفون على جميع السجناء ، والعجيب أن هؤلاء الحلاقين على كثرتهم كانوا من المتهمين في قضايا المخدرات اما بالتعاطي أو بالاتجار ، وكانوا لهذا يعلمون من أخبار الحياة الاجتماعية العالية والوضيعة ما يشوق الاطلاع عليه ، وقد نسوقهم الى ذكره ان آثروا السكوت أو خشوا رقابة الحراس •

أما في هذه الحلاقة الاخيرة فقد كان يعنيني أن أفرغ منها في دقائق عاجلة لأنني فوجئت بتغيير نظام الخروج ، وكان لا بد لي من ابلاغ ذلك الى أخي الذي كلفته أن ينتظرني بباقات الزهر على مقربة من السجن حوالي الظهر موعد الافراج المعتاد ، وقد كان ضريح « سعد » الذي أعددت له تلك الباقات على طريق « قره ميدان » • وكان يتردد بيني وبين أخي بالرسالة والجواب بعض الموظفين وهم ينصرفون بعد العصر بقليل • فاذا فاتني أن ألقى واحدا منهم قبل انصرافه فقد اختلف التقدير واختل

الحساب ، وقد أزور ضريح سعد عقب خروجي ولكن بغير أزهار ، أو أزوره ومعي الازهار ، ولكن بعد أن يبطل معنى هذه الزيارة التي قصدت أن تكون أول ما أباشر من عمل الحرية .

وشاء الحلاق أن يبتليني في هذه الحلاقة الاخيرة بكل ما اشتهر به أبناء صناعته في أحاديث الغابرين والحاضرين من حذلقة وثرثرة ومضايقة واعنـــات .

والحق أنني كنت أسمع بهذه الشهرة وأقرأ روايات الرواة عنها في كتب العرب والافرنج فأحسبها من مبالغات الهازلين لأن الله لم ينكبني قبل ذلك بحلاق ثرثار . أما في ذلك اليوم فقد عرفت أن الحقيقة أكبر من مبالغات الجادين والهازلين في بعض الاحايين . وأخذ هذا الحلاق «الظالم» بحقوق جميع المظلومين من أبناء الصناعة !

وضع صاحبنا في ذهنه أنني خارج غدا وأن الناس سيلقونني فـــلا يلتفتون الى شيء غير « حلاقتي » النظيفة وغير العجب من أن أظفر بهـــذه الحلاقة الفاخرة بين جدران السجون ! وسيتحدثون ولا يسألون عن شيء في حديثهم الا أن يعرفوا اسم ذلك « الفنان » المغمور المدفون في تلـــك الغيابة المظلمة ، وسيلبثون منتظرين متشوفين حتى يأذن الله برده الـــى حانوته المجهول فيتسابقوا اليه وينبذوا مـــن كانوا يعبثون في رءوسهم ولحاهم من جهلاء الحلاقين ، ويحمدوا الله أن سعدوا بجلسة تحت يدي هذا النابغة العظيم .

وضع صاحبنا في ذهنه هذا الخاطر فأحفى غاية الاحفاء وأمعن غاية الامعان ، وطفق يفهمني أنه ما من عدة يستعد بها الحلاقون في الاماكن المنتظمة الا وهو قادر على الاستغناء عنها بحيلة من الحيل وبراعة مـــن البراعات ، ومضى يجرب تلك الحيل وتلك البراعات حيلة حيلة وبراعـــة براعة ليريني صدق ما يقول رأي العين ، وأنا أقرظ وأزكي وأعيد التقريظ والتزكية ، ولا جدوى ولا نجاة .

وأخذت أنبهه الى أنني مستعجل وهو لا يتنبه ، وأرجوه أن يسرع وهو لا يزيد على قوله « حاضر » ثم ينساها بعد لمحة ، ويدأب على ما كان فيه كأبطأ ما يكون الابطاء وأدق ما يكون التدقيق •

وتململت وهو لا يحفل ، وتأففت وهو لا يكترث ، وظن أخيرا أنه فهم لماذا أتململ وأتأفف وان « الدنيا » حر وقد كانت « حرا » حقا لأن الشهر شهر يوليو والساعة ساعة الاصيل ، فلما قلت له بل انني « انتفض » من البرودة ضحك وأغرب في الضحك وظن انها « نكتة » وأنه وهـو « واحد » من أبناء البلد لا يليق أن تفوته هذه النكتة دون أن يوفيها حظها من المزاح والتعليق !

فما العمل ؟

كل شيء يمكن اقتضابه الا أن ينطلق الانسان بوجه نصفه محلوق ونصفه غير محلوق • فغالبت غيظي وضحكي المكظوم من هذا الغيظ ، واتخذت كل ما يسعني اتخاذه من هيئة الجد والاهتمام وقلت (انني لا أستطيع أن أصبر فوق ما صبرت ، فاكتف بما صنعت واقنع بما أبدعت ، واجعل همك أن تتركني بعد دقائق قليلة على حالة تصلح لمقابلة الناس ، وأنا أتمم البقية غدا فسيكون عندي متسع للاتقان والاحفاء •

فاختلج كالمذعور وصاح بي : عيب يا أستاذ ، ماذا يقولون عنا اذا شهدوا هذه « اللكلكة » وهذه العجلة بغير عناية ؟ ؟ أيقولون اننا لا نقدر الاستاذ قدره ، أم يقولون اننا صبيان في هذه الصناعة ؟ ؟

وفطنت لما يدور بخاطره وما يمني به نفسه من ذلك الاعلان المأمول • فأحببت أن أفجعه بعض ما فجعني وقلت له وكأنني أطمئنه وأهدىء روعه : لا تشغل بالك بهذا يا فلان ! انني لن أبوح لأحد باسمك ! فعجل مـا استطعت وأرحني أراحك الله ! !

فارتعب الرجل وخيل الي أنه يوشك أن يدق صدره ويلطم خديه ، وبدر على لسانه ما خبأ في جنانه ، فصاح قائلا : ماذا يا أستاذ ؟ أتحرمني

هذا الشرف وأنا أنازع رصفائي عليه منذ أيام ؟ يا ضيعة المسعى ويا خيبة الرجاء ؟ أتكتم اسمي كأنني أسأت وقصرت وأنا أقطع يدي وآتي بغاية ما عندي لأبلغ اليوم قصارى الاحسان والاتقان ؟ ؟ ... لا لا .. يا أستاذ .. كلها نصف ساعة وينتهي كل شيء على ما يرام . ولا عليك من اقتراب موعد الاغلاق فان الحراس لن يضنوا بفتح الباب لي اكراما لك ، ولا سيما في عشية الوداع !

وكأنما كان هذا المنكود ملهما أن يثير قلقي ويذكرني ما أحذر وأتقي . فان اشارته الى « موعد الاغلاق » عصفت بالبقية الباقية من صبري فألقيت بالمنديل الذي ناطه بعنقي وهممت بالخروج الى فناء السجن فلم يثنني عن انفاذ عزمي الا أن الخروج على هـذه الصورة يجمع حولـي الحراس والموظفين ، ان بقي أحد منهم الى تلك الساعة ، فلا يتيسر لي أن أتصل بمن أريد .

أشهد أنني شعرت بغبطة الافراج كلها ساعة أفلت من يد ذلك الحلاق « راجي عفو الخلاق » لاعفا الله عنه . فان حركة اليأس التي اندفعت اليها في غير عمد ولا روية قد أكرهته على قبول « التضحية » بفنه واتقانه والرجاء في شهرته وعرفان قدره ، فاستسلم للعجلة والندامة معا وانقلب الى ابداء براعة السرعة وحذاقة الهرولة بعد براعة التؤدة وحذاقة الاستقصاء والاناة . وتبعني بعد أن تركته وهو يستحلفني ألا أنساه ، وأنا أقسم له أنني لن أنساه وان أردت نسيانه . ثم انتهيت الى فناء السجن وقد تخلف فيه بعض الموظفين عمدا الى ما بعد موعد الإنصراف ، لأنهم قد علموا من الحراس بما أنبأني به المأمور فانتظروني ريثما أخرج مـن الحجرة لعلي أفضي اليهم بنبأ أو رسالة ، وقد تمهدت السبيل في اللحظة الاخيرة وخلا الجو للمقابلة والكلام ، فأسررت اليهم بما عندي وعلمت بعد ذلك أنهم أدوا الرسالة في أمان ، بل في افراط من الامان ، لأنني علمت أيضا بعد ذلك أن أناسا من هؤلاء كان معهودا اليهم أن يتلقوا رسائلي الشفوية وينقلوها

الى مرجعين لا الى مرجع واحد • وأنهم كانوا يوقعون بمن يخلصون في نقل رسائلي مخاطرين مستهدفين للغضب والعقاب ، ليستأثروا وحدهم بهذا الواجب المشكور المأجور •

بت تلك الليلة كما أبيت كل ليلة ، ونمت كما أنام كل ليلة ، وأصبح الصباح فلم أكد أفرغ من تناول الافطار حتى وافاني الضابط في الحجرة يسألني : هل أنا على استعداد ؟ ؟ فقلت على أتم الاستعداد اذا شئت أن أفارقكم وأنا بملابس البيت ، اما اذا كرهتم ذلك فليس بيني وبين الاستعداد التام الا خمس دقائق • ولاح عليه أنه ينتظر هذه الدقائق وهو مشفق من اغضاب رؤسائه ، لانني لم ألبث في الحجرة الملاصقة لحجرة المأمور الا دقائق معدودات تسلمت فيها ودائعي وانتقلنا بعدها مهرولين الى سيارة مقفلة داخل السجن على أهبة المسير ، فما هو الا أن استقررنا بها حتى فتحت لها الابواب وطارت الى الميدان فالى شارع محمد علي وهي لا تلوي على شيء ، وما زالت تعدو بهذه السرعة حتى بلغت سجن الاستئناف ، وأسلمتني اسلاما جديدا الى مأموره ، فنقلني نقلا جديدا الى حجرة خالية ، واستنزلني بعدها الى الفناء في ساعة الرياضة ، وكانت نحو العاشرة ، ولا يزال باقيا على موعد الافراج عند الظهر ساعتان •

على أنني لم ألبث ربع ساعة في هذه الرياضة التي لا معنى لها في يوم الافراج غير التزام القواعد والاصول ، واذا بكبير من موظفي السجون يقبل على عجل ، ويسلمني ودائعي مرة أخرى ، ويهنئني « بالفرج » ويتركني في كفالة ضابط يصاحبه رجل عملاق من رجال الشحنة الذين يعدونهم لأعمال العنف والتهديد ، ويمضي الموظف الكبير لطيته وأمضي أنا والضابط والعملاق الى حجرات الموظفين بمحافظة العاصمة من طريق خلفية ، ثم الى مركبة تهرب بنا الى منزلي بمصر الجديدة من ناحية شارع فاروق •

• في أيام المحاكمة كانت الجلسات تبدأ الساعة العاشرة أو الحادية عشرة

وكانوا يحضرونني مع ذلك في ابان الشتاء القارس قبل الساعة الثامنة وقبل أن يأذنوا لأحد بالدخول الى قاعة الجلسة ، وقد فهمت سر العناية بهـذا التبكير ، لأن النيابة كرهت أن أدخل القاعة وهي مزدحمة فيقف الحاضرون تبجيلا لهذا « المتهم » الذي يراد له الهوان ، كما فعلوا في الجلسة الاولى •

وفي يوم الافراج فهمت سر العناية بهذا التبكير وهو اتخاذ الحيطة للمظاهرات وزحام الاستطلاع •

أما الذي لم أفهمه ولا أزال أجهله فهو هذا العملاق المعد للعنف والتهديد ولا حاجة هناك لعنف ولا تهديد : انني لن أهرب من المركبة الهاربةولا أخال ان عملاقا واحدا يخيف الجماهير اذا تعطلت المركبة ووقفت في الطريق ، فلم يبق الا أنه حكم الصنعة كما يقولون ، وان الشرطة لا يتخيلون لهم مهمة يؤدونها بغير تخويف ، لأنهم لا يكونون شرطة بغير ذلك ! والا فما الفرق بين المزاملة والحراسة ؟ وما الفرق بـين السطوة والايناس ؟

طارت بنا السيارة في مدينة معهودة غير معهودة ، وشائقة غير شائقة ، كأنني أطرأ عليها لأول مرة أو كأنني أستذكرها بعد غيبة طويلة ، ولا يمنعني أن أتلفت اليها تلفت الغريب الطارىء الا أنني في فسحة من الوقت بعـد فترة وجيزة للتلفت والاستذكار •

ولا يحضرني أنني التفت الى معلم من معالم الطريق غـير مدرسة الصناعة بالعباسية الوسطى • فقد كانت حديثة البناء فسألت عنها الضابط فقال لي : نعم هي حديثة ، ولم يزد على ذلك •

ولما شارفنا المنزل دعوت الضابط والعملاق لتناول القهوة أو المرطبات فاعتذرا ، لأنه حكم الصنعة كذلك !

ولم يمنعني كل هذا التحوط والروغان أن أعود من مصر الجديدة الى حيث أنجز البرنامج الذي عولت عليه قبل مغادرة السجن ، فرجعت

من حيث أتيت ، وزرت ضريح سعد وضريح ويصا ، وتبين لي أن أخي وأصحابي كانوا يلاحقونني مــن مكان الى مكان ، لأنهم كانوا يعلمون بانتقالنا من كل موضع ومخبأ ، على الرغم من التخفي والاتاهة والاسراع .

وجلست في المنزل كمــا كنت أجلس ، ولقيت الاصحاب وسمعت التهنئات . فأما الاصحاب فقد سرني لقاؤهم بعد وحشة ، وأما التهنئات بالافراج فكنت كأنما أصغي منها الى حكاية قديمة أو حديث معاد .

هل مضت على آخر جلسة في هذا المكان تسعة أشهر ؟ لا أظن . أو أظن أنها مضت ونسخت نفسها بانقضائها ، فلم أمكث في المنزل ساعات حتى خيل الي أنني رجعت اليه ذلك الضحى بعد أن فارقته ذلك الصباح !

* * *

بعض الشخصيات

لبثت في السجن وخرجت منه ولست أذكر من سكانه الذين يستحقون اسم « الشخصيات » غير ثلاثة أو أربعة من أربعة آلاف انسان تحويهم جدرانه ، وهو عدد يساوي عدد الرجال في عاصمة من عواصمنا المصرية المشهورة .

ذلك أن « الشخصيات » في سجن مصر نادرة .

فالسجناء هناك أرقام في حساب مصلحة السجون وهم كذلك أرقام في حساب الطبيعة : كلهم مغمورون في بحر لجي من الضآلة والخسة والتفاهة ، لا يعلو بينهم رأس فوق الغمار ، ولا تتباين فيهم الخلائق والصفات الا كما تتباين الموجة والموجة في بحر هادىء ذليل ، لا تضربه العواصف ولا يعج ولا يلتطم .

وهؤلاء « الشخصيات » الثلاثة أو الاربعة الذين أذكرهم من سكان السجن هم أيضا خلقاء أن يغرقوا في غماره ، ويتواروا في خموله لولا بعض الغرابة الملحوظة على أثباج ذلك الخضم الواسع من التفاهة والفهاهة .

فالغرابة اذن شفيعهم الى الذكر والنباهة ! وليس شفيعهم الى الذكر والنباهة مزية انسانية أو قدرة خارقة أو صبغة مستملحة من ألوان الحياة الفريدة .

أحد هؤلاء « الشخصيات » مجنون يتنازعه السجن والبيمارستان .

والثاني مجنون أيضا ولكن على طراز آخر من الجنون .

والثالث مقعد مبتور الرجلين الى الفخذين .

والرابع – ان كان لا بد من تحقيق قولة الثلاثة والاربعة – خليط من الجنون والعربدة والمكر والدماثة المصطنعة والجموح الصحيح •

وكلهم يسكنون السجن على انفراد ، لأن الجمع بين واحد منهم وزميل آخر في حجرة واحدة مستحيل •

* * *

انني لأتمشى ذات يوم في فناء السجن اذا بشيطان أسود يقطر منه النفط القذر يعدو هنا وهناك ويفر منه الجند والموظفون •

من هذا ؟

هذا هو المجنون الاول نقيب ، ولنسمه بهذا الاسم القريب من اسمه ولا نذكره باسمه المشهور مخافة المساس بهذه الشهرة الحسنة والسمعة المبرورة ! وخشية المقاضاة ورد الشرف والتعويض !

ولماذا صنع نقيب هذه الصنعة الكريهة بنفسه ؟ ولماذا أغرق نفسه في حوض النفط وهو بغيض الى الشم بغيض الى الذوق بغيض الى النظر ، غير مأمون على البشرة والحواس والجوارح ؟

مكره أخوك لا بطل !

هجم على المخبز لاختطاف رغيف ساخن ليس من حقه ، فهجم عليه الحراس يوسعونه لكزا ولكما ويقودونه الى « سعادة المأمور » ، فخير ما يصنعه نقيب في هذه الحالة أن يقذف بنفسه الى حوض النفط القذر لحظة واحدة يخرج بعدها كما رأيت شيطانا مرهوبا يفر منه من كانوا يطاردونه ، ويتقي لمسته من كانوا يوسعونه ضربا ولا يرسلونه من قبضتهم طرفة عين !

وراح نقيب يصول ويجول ويعدو ذات اليمين وذات الشمال ، وكل حارس حريص على كسوته يهرب من وجهه ويستغيث بالسجناء المطلقين في الفناء لأنهم لا يخافون على كسوتهم كما يخاف الجندي والحارس ، حتى شبع نقيب من الصيلان والجولان، وأنذره ضابط السجن بمسدسه فخضع واستكان •

ويجيئه المأمور الرجل الوقور ويصيح به : ما هذا يا هذا ؟ انني لا أريد أن أجن معك ، انني سأرسلك الى البيمارستان ! ! فينظر اليه نقيب في جد لا شائبة فيه من الهزل والمجانة ، ويقول : معاذ الله يا سعادة البك ! وهل نحن من أهل ذاك ؟

* * *

لا سمح الله !

ولنقيب مذهب في تقدير الجرائم والعقوبات يختلف من كل مذهب مأثور بين الناس في فلسفة الشرائع والقوانين .

كان على وفاق مع رجل قصير قميء من تجار المخدرات محبوس على ذمة التحقيق ، وكان الرجل يستظرف نقيبا ويلطفه بلحوم الدجاج والضأن والديكة الرومية والفاكهة والحلوى والمطبوخات من كل صنف تتسع له ثروة المتجرين بالمخدرات .

ويسعى أهل الفساد بين نقيب والرجل فيمنع عنه بره وسلامه وكلامه ، ويهيج نقيب هيجته الغضنفرية الحمارية الجامعة بين الزئير والنهيق ، وهو لا يحتاج الى أكثر من هذا السبب للغضب والثورة والوعيد .

فبعد أن يفرغ جعبته من الشتم والتعيير في بعض الايام يسكت كمن يفكر ويتدبر ثم يقول :

من أنت يأيها الحقير ! انني أمحقك ... انني أسحقك .. انني قد ضربت الدكتور فلانا وهو طول وعرض وقامة وهامة وأخذت فيه أربعة أشهر . فأنا أقتلك وأنت « شبر نكد » ولا آخذ فيك أكثر من أسبوعين ، ويشاور القاضي عقله بعد خروجي من المحكمة !

ولو اعتمد المشترعون مذهب نقيب في تقدير الجرائم والعقوبات لاستغنوا بمتر في كل محكمة عن كل هذه الاسفار والمجلدات ، وكل هؤلاء المفسرين والشراح .

* * *

وتسمع في هدأة الليل لغطا وحركة ، وتسمع الحارس يقول : من هذا ؟ وأولى به أن يسأل : من هؤلاء ؟

نعم من هؤلاء أولى ، لأنك تسمع غناء عبده الحمولي ، وتقريظ الحاشية حوله ، وهتاف السامعين وضجة الطفيليين الراغبين في دخول الفرح وغشيان السامر وما هم من المدعوين اليه .

وكل هؤلاء هم « نقيب » وحده بلا مساعد ولا معين ، لأن « نقيبا » كما ينبغي أن تعلم يحسن « التقليد والمحاكاة » بعض الاحسان ، ويهوى الغناء من قديم ولا يعجبه غناء بعد عبده الحمولي ومحمد عثمان ، ويضاف اليهما يوسف المنيلاوي مع التحفظ والعطف وزم الشفتين !

وتسأله كل مرة يتحدث فيها عن مجالس الطرب القديم في عهد اسماعيل : كم عمرك ؟ فيصر في كل مرة على أنه لم يتجاوز الاربعين !

مع كل هذا الجنون عاقل !

أو مع ما فيه من العقل مجنون !

* * *

واذا تكلم نقيب فليس من يلجئه الى السكوت ، واذا سكت فليس من يلجئه الى الكلام .

ولكن الخبثاء من سجناء المحاكم المختلطة ــ وأكثرهم تجار لبقون ــ يعرفون كيف يخرجونه من الصمت العنيد اذا احتاجوا الى مناوشاته وعربداته وأغانيه ، وهم أحوج ما يكونون اليها في غياب المسارح والسهرات .

هو يهذر ويحكي عن أهله وينسى بعد ساعة واحدة كل ما قال .

وأنه لفي صمته العنيد ذات ليلة اذا بصائح يناديه : كيف حال بهية !

واذا بصوت ينفجر من ناحية الحجرة التي فيها نقيب : بهية من يا ولد ! ؟

فيجيب التاجر الخبيث : بهية أختك ! بهية ذات الشعر الاصفر ! بهية

ذات العينين النجلاوين ! بهية ذات الردفين الثقيلين! بهية التي تلبس الرداء الاخضر ! بهية التي تسكن في باب الشعرية ! ! بهية يا حسرتي على بهية ! !

وكل هذه أوصاف سمعها التاجر وسمعها « العنبر » كل ليلة من الليالي الغابرة من فم نقيب دون غيره ، ونسيها نقيب •

ويصدق صاحبنا ما سمع ، ويثوب الى نفسه وكأنه يناجيها : « صدق من قال لا أمان للنساء ! » ••• والعجيب أن « بنت الكلب » أوشكت أن تدفعني الى الموت لأنها شكت الي رجلا يغازلها ويسد المنافذ عليها ، فبطشت به ولم ينقذه من يدي الا عمره ، لك حق يا فلان • اذهب فاصنع بها ما تشاء ! !

ثم يرجع ثائرا ويندم على هذا « التفويض » وينادي التاجر : اياك يا هذا أن تصنع بها شيئا : والله بعمرك ! ! والله الحكاية كلها مشوار من هذه الحجرة التي أنا فيها الى بيتك ومن بيتك الى هذه الحجرة التي أنا فيها ، وعوض الله عليك في عمرك : أسمعت ؟

نعم سمع ، وسمع العنبر كله ، وهذا هو المقصود •

* * *

وأعترف أنني قد عرفت من نقيبنا هذا شيئا كثيرا من طبيعة الشاعر القديم ، أو الشاعر المداح الهجاء : عرفت أن كل ما يتوخاه ذلك الشاعر في فنه هو أن يقول لمدوحه انني أريد أن أرضيك بالثناء وترضيني بالعطاء ، وهي صفقة معقودة علانية بعلم المادح والممدوح والسامعين ، لا حاجة فيها الى الصدق ولا الى المعاشرة ولا الى الاخلاص ولا الى شيء غير البضاعة والثمن ، والبضاعة هي المدح الظاهر والثمن هو العطاء الظاهر ، وكان الله يحب المحسنين •

نقيب لم يكن يعرف أحدا من سجناء المحاكم المختلطة الذين كانوا يبرونه بالحلوى والجبن والادام ، ولكنه يعرف دائما أن الذي يعطيه قطعة من الحلاوة الطحينية أو شريحة من الجبن رجل ثري يملك سيارة فاخرة

تخطف الهواء ويركبها الراكب وهو حذر على طربوشه أن يطير . وأنه يملك قصرا باذخا في بعض الضواحي دخله هو وأكل فيه ولم ينفذ الى حجرة استقباله الا بعد أن عبر خمسة بوابين ، ويعرف أن الحرير أبخس ما يلبسه الخدم في ذلك القصر الباذخ فضلا عن السادة والسيدات ! وهو يجهر بهذه المعرفة ليلة العطاء العلني المشهور المذكور بين سائر السجناء . وينادي أحد الزملاء ليحدثه جهرة بهذا كأنه يعني أن يكشف له سرا في غياب الممدوح ، لأنه لا يخاطب الممدوح وانما يخاطب سواه ، فالكلام اذن لا تمليق فيه ولا تزوير ولا محاولة ارضاء أو جزاء .

نعم ، ويعرف نقيب تماما في اليوم التالي أو اليوم الذي بعده أن ممدوحه هذا بعينه صعلوك ابن صعلوك . لا يملك سيارة وانما هو « حمار سبخ » لا يساوي شلنين ! ! ولا يملك قصرا باذخا وانما هو كوخ في عرب المحمدي ينبني وينهدم في يوم ! ! ولا يلبس الحرير وانما هي ملاءة الفراش القديمة يرقعها ويفصلها جلابيب . والظريف أن يكون جلباب الممدوح أو المهجو ذلك اليوم من نسيج منقوش بالمربعات التي تنقش بها ملاءات السرير ، فالشاعر على هذا لا ينسى بعض الحقائق وبعض المناسبات !

* * *

ذاك هو المجنون الاول .

أما المجنون الثاني فقد كنا نعجب له كيف اتسع وقته لزيارة البيمارستان وهو لا يفارق السجن الا ليعود اليه ، وكيف يفارق البيمارستان اذا دخله مرة وهو أقرب الى أهله من أهل السجون .

قال لي انه قضى في السجن أكثر من عشر سنين ، وقال لي أحد الحراس انه قضى فيه ثلاث عشرة سنة كلها أحكام مقطعة بين ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو سنة ، وهو يعيد نفسه الى السجن كلما أخرجوه عند انتهاء أمده على الرغم منه ، وما عليه الا أن يخطف ما يخطف ، أو يضرب كل من

صادفه أمامه صالحا « للانضراب »ثم يدع للمحكمة والشهود والمجني عليه أن يحلوا اللغز ويكشفوا عن سر الجريمة بين مضروب لا يعرف الضارب وضارب لا يعرف المضروب .

وقد سرى الى قرارة خلده شعور صادق بضرب من « الملكية » للسجن بحق المكث الطويل فيه ، فسمعته يوما يتحدث مستخفا غاية الاستخفاف عن مأمور السجن الذي مضت عليه في الوظيفة سنوات ، ويذكره باسمه وهو يناجي بعض أصحابه قائلا : من هو « فلان » المأمور هذا ؟ ! . اننا لا نسمع به الا هذه الايام ! !

وهذا ــ المخلوق ــ وليكن اسمه عساسا على طريقتنا في تسمية نقيب ــ هو النشوز بعينه لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يراقب أحواله ويستقصي أخباره .

وجهه ناشز وصوته ناشز وأخلاقه وأعماله نشوز في نشوز ، ولكن المدهش في نشوزه انه على استواء واحد كأنما ينشز بقاعدة مرسومة ، فاذا غنى اليوم وأعاد الاغنية بعد عشرة أيام فوقع النغمة في الاذن واحد وهي مع ذلك ناشزة في كل مرة على نحو مختلف من النشوز . فليس التشابه في أغانيه كتشابه الاسطوانة التي تعاد والدور الذي يضبط ويدار على لحن واحد ، ولكنه مع ذلك تشابه لا يحكيه أحد سواه .

ولا ريب عندنا في أن عساسا هذا على حظ من مزاج الشاعرية يناسبه ويماثله في الهبوط والتفاهة ، فهو اذا احتواه الليل بين أركان حجرته رفع عقيرته وخاطب تلك الحجرة الجافية معددا لها شواهد حبه ودلائل غرامه ، وانها هي التي تعلق بها وتعلقت به ففيها مشتاه ومصيفه واليها منقلبه ومآله، ولديها معتصمه وملاذه من المأمور وغير المأمور ، وعليه نظافتها وجلاؤها ، وبينه وبينها ما ليس بين الزوج وزوجه من رحم ومودة .

ومن أجل هذه الاغاني سماه السجناء والحراس « عساس الاوضة » لأنه يسمي الحجرة « أوضة » ولا يسميها زنزانة كما تعرف في قاموس السجون .

وللجراية عنده أنشودة أخرى تجاري حرّه التوزيع ساعة تشريق العدس والخبز عليه وعلى الزملاء : قــرب يا شاويش وهات الجراية ! ! واغرف يـا شاويش وفرق الجراية : وانصفنا يـا شاويش واشبعنا من الجراية ... وهكذا مــن قافية الشاويش الى قافية الجراية حتى ينتهي التوزيع وينصرف السجناء وهم يرددون ما لقنهم اياه شاعرهم عساس .

وتمام العلم بنشوز هذا المخلوق الغريب أن تعلم أنهم نقلوه مــن « أوضته » العزيزة عليه الى قسم التأديب فأراد أن ينتقم من المأمور فماذا صنع ? ? عمد الى الصفيحة التي تناط الى صدره وعليها رقمه فشحذها وقطع بها احدى خصيتيه !

* * *

أما ثالث الثلاثة أو الاربعة الذين يستحقون اسم « الشخصيات » بين أولئك النكرات فليس هو بمجنون ولا بمخبول ولا بشاعر أو فنان ، ولكنه رجل مقعد يمشي على خشبة ذات مكر يدفعها بمقبض في كلتا يديه كمـا يدفع السابحون زوارق الحمام .

ولا يخاف السجناء مجنونا في ثورته كما يخافون ثورة هذا المقعد الكسيح .

ويخطىء القارىء اذا فهم مــن قولنا « ثورته » ان الرجل يثورها مهتاجا مغلوبا على أمره كما يثور الغاضب المحنق ، أو الطائش الاحمق .

كلا ! فان الرجل ليثور لأنه يريد أن يثور ، بل محتاج الى أن يثور ، فثورته في كل مرة لا تأتي الا بروية وتدبير وتقدير .

وجلية أمره أنــه سجين مخدرات وأنه في السجن مـا زال يتجر بالممنوعات والمهربات ، وأهمها وأنفسها التبغ والكبريت .

ولعله يكسب في السجن أضعاف ما يكسبه من السموم المهربة وهو طليــق .

فاذا استضعفه أحد من عملائه وظن أن هذا العاجز الكسيح أهون

من أن يحسب له حساب أو يؤدى له حساب ــ فالويل للاحمق المأفون من عاقبة جهله وغروره : انه لمغلوب ولو كان أقوى الاقوياء ، وانه لن ينجو من الجروح والرضوض وان لم يظفر به الكسيح كل الظفر ولم يهزمه كل الهزيمة ، فبينما الخصم القوي الواقف على قدميه لا يناله في مقتل ولا مأمن اذا بذلك الكسيح يتناول كل ما نالته يداه ويقفز ويندفع ويكر ويفر كأنه الديك الصائل لا تمسكه العين في حركة واحدة أو موضع واحد ، وسلاحه في كل ذلك تلك الخشبة التي يجلس عليها وذلك المقبض الذي يحمله في كلتا يديه ، ولا تنتهي المعركة الا وهــو أربح الخصمين وأسلم المضروبــين •

هذا المخلوق هو مثال القوة التي تخلقها الحاجة اليها ، واستضعاف الناس لمن لا يحسبونه من أهلها •

* * *

بقي الرابع المرشح لتكملة العدد ، ولك أن تحسبه أو تسقطه مــن عداد هذه النخبة المباركة ، فلست أعرف له من معالم « الشخصية » الا أنه يضطرك الى رؤيته ويفرض عليك وجوده • فاذا أقبل شبح من بعيد في غرارة من غرارات العقاب المفتوحة عند الكتفين فغالبا ما يكون الشبح المقبل هو « الون » بعينه • واذا رأيت كسوة حمراء من كسى التأديب تقترب في عنف وعجلة فأقرب الاحتمالات الى الصواب أن « الون » هو صاحب تلك الكسوة الحمراء ، واذا لم يكن بين المصطفين للجلد فهو لا محالة بين المصطفين للتحقيق أو بين المصطفين للفحص الطبي في غير مرض ولا انحراف مزاج ، واذا لم تسمعه مغنيا في هذه الطبقة فهو ولا ريب صائح أو صاخب في الطبقة المجاورة • فليس هو « شخصية » لأنك تحب أن تراه أو يهمك أن تراه ، ولكنه « شخصية » لأنك لا بد أن تراه وان كرهت مرآه •

وأظرف عربداته الكثيرة أنه طرأ له يوما من الايام أن يصطنع الخرس والصمم فلا سمع ولا جواب ، ولج في اصطناعه حتى حاول أن يعمّي الأمر

علي وهو يزعمني من أصدقائه وخلصائه ولا يداري عني ما يداريه عن الضباط والحراس المبغضين ، فلما سألته : أصحيح أنك لا تسمع ولا تتكلم ؟ لمعت عيناه ولم ينبس بحرف ، وتباله بسيماه كما يتباله الصم المغلقون ، الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يفقهون .

ولم تمض دقائق على هذا التمثيل الغبي حتى سمعته في غرفة العمليات الجراحية يردد بعض العبارات الانجليزية بأعلى صوته ، ويجيب الطبيب على كل سؤال يلقيه عليه ، وانما الفضل في شفاء خرسه المصطنع للدواء المرقد الذي خدره به الطبيب فحجب ارادته وأطلق لسانه ! !

* * *

وقد أظلم السجن اذا أنا جزمت بأن الاربعة الذين أجملت وصفهم هنا هم كل من فيه من ذوي « الشخصيات » والغرائب الملحوظة ، فغاية ما أجزم به أنهم هم كل من أذكر الآن ممن رأيت ، ولعل لهم أشباها ونظراء لم أرهم والحمد لله ولا أسف على ما فات .

ذلك أنني بليت بمن لقيت من هؤلاء الاربعة بعد خروجي من السجن بلية لا يؤسف على فواتها ، فمنهم من كان يلقاني في شوارع العاصمة فلا يدعني دون أن يتقاضاني ضريبة لقائه ، ومنهم من كان يحييني تحية الزملاء الرصفاء كلما بصر بي في ناد أو طريق ، وعرف أولهم «النقيب» طريق داري فحاصرني فيها مرارا لا يبرح الدار اذا حضر حتى أخرج أو أعود ، وأسوأ ما في الامر أنه لم يكن يحضر الا وهو سكران طافح معقود اللسان مسترذل الحديث .

قلت له آخر يوم وقد دعوت له الشرطي : يا نقيب ! انك تحتاج الى سجن لتكون ظريفا وقانا الله من ظرفك وأنت سجين ومن مضايقاتك وأنت طليق . فاذهب ولا تعد ، والا أعدتك مع هذا الشرطي الى حيث لا أراك .

وذهب ولم يعد حتى الآن ، لا أعاده الله .

الجريمة والعقاب

سومرست موام Somerset Maugham كاتب انجليزي مستفيض الشهرة له مؤهلات كثيرة لمعرفة الطبيعة الانسانية ، لأنه كان طبيبا ومريضا في وقت واحد فهو عليم بما في الانسان من ضعف وما يشتمل عليه من أثرة وعطف • وهو كاتب قصاص يتتبع « الشخوص » وينقب عن أسرار الطبائع وبواعث الاخلاق ودخائل الآداب المصطلح عليها بين الطبقات • وقد اشتغل « بالجاسوسية » أيام الحرب العظمى فعاشر الساسة والمغامرين وعرف كيف يستدرج الناس الى افشاء الاسرار والوشاية بالاعداء والاصدقاء والوقوع في أشراك المطاردين والرقباء ، وكيف يزل أصحاب الدعوات والمثل العليا من أجل مطمع أو مظهر أو شهوة أو غواية ، وكيف يستهين بالحياة البشرية من ليس له غرض في اتلافها غير المال والمتاع ، وكيف يقبل الشرفاء استخدام الاثمة والاخساء عندما تعن لهم المصلحة العامة أو المصلحة الخاصة ، وكيف يتوارى الناس وراء دعوى الوطنية أو الغيرة على الحضارة والحرية لقضاء اللبانات وشفاء الحزازات والترات، وقد زاده علما بطبيعة الانسان انه ساح في الغرب والشرق سياحة متفرج وسياحة مستطلع مستخبر • فأعانته هذه المؤهلات كلها مع الفطنة الوقادة والبديهة الحاضرة على استكناه النفوس والنفاذ الى ما وراء الظواهر واختبار دعوى الخير والشر في الصالحين والطالحين على حد سواء •

هذا الرجل الكيس اللبيب يروي بلسان مدير الشرطة في بعض البلاد الاسيوية قصة عن « أسرة موقرة » مؤلفة من أب وأم اشتركا في قتل زوج

المرأة السابق ولهما بنت هي بنت الخليل وان كانت منسوبة الى الحليل ، وقـد حدثت جريمة القتل لأن المرأة حملت وزوجها السابق لا يشك في سفاحها اذا ظهر عليها الحمل • فدبرا الجريمة قبل أن يفتضح السر ونجحا في اخفائها ، ثم انقضت الايام والسنون والاسرة تعيش في سلام لا يعكر صفوها معكر ولا ينغص عليها العيش تبكيت الضمير ولا يجترىء أحد على الايماء اليها بمسبة أو اهانة •

ويقول سامع القصة لمدير الشرطة سائلا :

لا أظن الزوجين قد نسيا ما اقترفا ؟

فيجيبه المدير : « اني لن أدهش اذا كانا قد نسياه • فان الذاكرة الانسانية قصيرة الامد قصرا يستغرب ، ولئن سألتني رأيي مـن الوجهة الفنية لم أحجم أن أبوح لك بأنني لا أعتقد أن الندم لاقتراف الجريمة يرين ثقيلا على ضمير انسان اذا كان على يقين من كتمان سره » •

ويعود سامع القصة فيسأل : « ألا تشعر بشيء من النفرة أو القلق وأنت جالس الى هؤلاء القوم ؟ أنـا لا أرغب في انتقادك ولكني أراني مضطرا أن أكاشفك بأنني لن أحسبهم مستطيعين أن يكونوا أناسا لطفاء !»

فيجيبه المدير : « انك في هذا لأنت على خطأ • انهم ناس جد لطفاء ، وهم معدودون ها هنا بين خيار القوم • والسيدة كارتريت على الخصوص « معتبرة » أنيسة المحضر ، ومن عملي أن أمنع الجريمة وأن أعتقل المذنب بعد وقوعها ، ولكن خبرتي بالمجرمين أكبر من أن تدعني أظنهم على الجملة شرا مـن الآخرين • وقد تدفع الضرورات رجـلا دمثا الى اقتراف جرم محظور فيكشف ويناله الجزاء ، الا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلا دمثا كما كان • نعم ان المجتمع يعاقبه على انتهاك قوانينه وهو حق لا نزاع فيه ، ولكن أعمال الانسان ليست في كل حين هي دليل باطنه الخفي وجوهره الصميم • ولو أنك زاولت صناعة الشرطي كما زاولتها عهدا طويلا لرأيت أن المهم في امر الانسان هو كيف يكون لا كيف يعمل ، وماذا هو لا ماذا

صنع ••• ومن دواعي الغبطة ان الشرطي لا شأن له بأفكارهم وانما شأنه كله متصل بأعمالهم ، ولو كان الامر على غير ذلك لاختلف جد الاختلاف ولعاد أصعب مما هو الآن بكثير » •

وخلاصة الرأي الذي يذهب اليه الكاتب الخبير ان كثيرا من المعاقبين يشبهون كثيرا من غير المعاقبين ، وان بعض الجناة اذا أفلتوا من الجزاء لم يميزهم أحد بوسم خاص أو علامة ظاهرة بين سائر الناس •

ولهذا الرأي أنصار كبار بين رجال القانون المؤهلين لدراسة هـذه الامور ، وفي طليعتهم المحامي الامريكي النابه « كلارنس دارو »[1] صاحب كتاب « الجريمة وأسبابها ومعالجتها » وهو حجة في هذا الموضوع لسعة علمه ووفرة القضايا الجنائية التي درسها ودافع عـن جناتها ، والقضايا الجنائية في أمريكا مدرسة زاخرة بالمعارف والعظات لا يتـاح نظيرها في الاقطار الاوربية أو الشرقية ، لأن جرائم الحضارة الحديثة في أمريكا قد بلغت من الاتقان والتنوع مبلغ الفنون المحكمة التي تستنفد جهود المحققين والقضاة والمحامين •

وفي وسعنا ــ بـل الواجب علينا ــ أن نفهم هـذا الرأي دون أن ينقاضانا فهمه أن نتبعه ونسترسل معه الى نتائجه البعيدة •

فمما لا شك فيه اننا نستطيع أن نؤمن بهذا الرأي ونستطيع أن نؤمن معه بالحقائق الضرورية لمنع البغي على المجتمع ومنع البغي علـى الجناة والمسيئين •

فمهما يقل القائلون في تساوي بعض المعاقبين وبعض الناجين مـن العقاب فهناك حقيقتان ليس فيهما خلاف بين الباحثين في موضوع الجريمة والعقاب : أولاهما ان المجرمين الذين يشبهون سائر الناس يستحقون أن يعاقبوا لأنهم مسئولون عـن أعمالهم ، والثانية ان المجرمين الموسومين بالشذوذ الخلقي يحتاجون الـى عناية الطب كما يحتاجون الـى علاج الشريعة •

---

(1) Clarence Darrow

يرى « كانت » ان عقاب المجرم واجب وحق ولو لم تكن له نتيجة غير جزاء العمل بمثله ومقابلة الاضرار بالاضرار . فان العدل البديهي يأمر بأن من يؤلم يتألم ومن يسيء يسأ ، والضمير الانساني يأبى أن يرى شقيا معذبا ومن يشقيه ويعذبه يغدو ويروح آمن السرب مستريح البال ، ولو لم يتماد في الايذاء والتعذيب .

أما أصحاب الفقه الحديث فلا يحسبون من عمل المجتمع أن يتولى تطبيق العدل البديهي على هذا المنوال ، وانما يطلب المجتمع عقاب المجرم لاصلاحه أو للوقاية من شره ، وكل ما عدا ذلك عبث لا يفيد ولا يليق .

فمنذ أصبح عقاب المجرم حقا للمجتمع ولم يعد حقا للمعتدى عليه أصبح العقاب لمحض الانتقام والتشفي رذيلة لا تليق ولا تؤدي الى المصلحة الاجتماعية ، وليس يليق أيضا أن تعاقب المجرم لردع غيره وارهاب الناس من مثل مصيره ، فان هذا معناه كما يقول المنكرون لمذهب الردع والتمثيل انك تعذب زيدا لاصلاح خالد ، وهذا ان صح أن العبرة بمصير المجرمين تردع أحدا ممن تسوقهم ضرورة الطبع أو ضرورة الحوادث الى الاجرام ، وهو في اعتقاد هؤلاء المنكرين غير صحيح .

فاذا كان الغرض من العقاب هو اصلاح المجرم وحماية المجتمع فهل السجن على أحسن نظمه ومقاصده مما يحقق هذه الغاية ويكفل للمجرم الصلاح وللمجتمع الحماية ؟

الحق أن فكرة « السجن » عتيقة جدا ظهرت في تاريخ الانسان قبل أن تظهر فكرة العقاب للاصلاح والوقاية الاجتماعية بآلاف السنين . فقد كان السجن في بداية الامر مكانا لاعتقال الاسرى أو المحكوم عليهم بالموت، ثم أصبح مكانا للتخلص من بعض المغضوب عليهم أو الواقفين في طريق ذوي السلطان ، ثم جاء العصر الحديث فحسبنا أن استبقاء السجون واتخاذها مكانا للعقاب وتنفيذ القانون على سنة من سلف أمر لا محيص عنه ولا ضير فيه ، مع أن قليلا من التدبر يرينا أن « فكرة السجن » قابلة لكثير من المناقشة والمراجعة في العصر الحديث ، وان الامم قد يأتي عليها

يوم تستغني فيه عن السجون بتة وتعدل عنها الى طريقة اصلح منها لتنفيذ القانون ، وربما كان هذا اليوم غير بعيد بالقياس الى ما غبر من تاريخ السجون .

أما اذا اتخذنا السجن « مستشفى » لعلاج المرضى المطبوعين على الجريمة فمن الواجب اذن كما يقول « كلارنس دارو » أن نجعل توقيت العلاج في السجون كتوقيت العلاج في المستشفيات .

فنحن لا نرسل المريض الى المستشفى ليبقى فيه سنة وان شفي في ثلاثة أشهر ، أو ليخرج بعد أيام وان كان شفاؤه يحتاج الى أعوام . فلا بد اذن من وسيلة لعرفان الوقت الذي يحسن فيه الافراج عن السجين بغير ارتباط سابق بموعد معروف لا يقبل التعجيل والارجاء .

ان تجربتي للمجرمين « المطبوعين » الذين يصلون الى السجون دلتني على أنهم قلما يكونون الا واحدا من اثنين : فاما رجل معطل الحس بآلام الناس وقد يكون معطل الحس بآلام نفسه وأقرب الناس اليه ، واما رجل مختل الارادة لا يضبط نزواته في ساعة الهياج أو ساعة الاغراء ، وكلا هذين لا تنفعه السجون الحاضرة على أحسن ما ارتقت اليه من تنظيم وتعليم ، وان حاجته الى العلاج والعناية النفسية لأشد من حاجته الى العقاب والايذاء ، لأن الايذاء يوسع الهوة بينه وبين المجتمع الانساني وهو محتاج الى من يقرب المسافة بينه وبين أبناء جنسه ويمحو من نفسه انه عدو يحارب الاعداء ويحاربونه .

ومن اليوم الى اليوم الذي تلغى فيه السجون ونهتدي فيه الى طريقة أصلح منها لحماية المجتمع وتنفيذ القانون يخيل الي أننا لا نملك وسيلة للاصلاح في هذا الصدد خيرا من استخدام الرقي العلمي والتقدم الصناعي في مطاردة الجريمة وكشف أسرارها قبل وقوعها وبعد وقوعها الى زمن طويل ، وقد نصل الى المستطاع من تحقيق هذا المقصد اذا رفعنا طبقة الشرطة وزودناهم كما نزود المحققين بالاساليب العلمية التي تعين على

مطاردة أعداء المجتمع وتعقبهم قبل الاجرام في دور النية والشروع ، وبعد الاجرام في دور الهرب والتضليل •

والآن تكفي لمسة للرصاصة التي في داخل المسدس لاثبات علامة يسهل رسمها وتحقيق شخص اللامس الذي استخدم الرصاصة بمضاهاة الرسم على أصابع المتهمين ، ويقال ان بعض العقاقير اذا عولج بها المتهم حجبت ارادته وأفضى بدخيلة سره ، ومن هذه العقاقير الكلورال والسكوبولامين (Scopolamine and Chloral) وهي التي يقال ان مكتب التحقيق في روسيا استخدمها لاقناع المتهمين في قضايا « الخيانة العظمى » بالاعتراف وافشاء أسرار المؤامرات المزعومة • وقرأت في مجلة الفورم Forum وصفا لأساليب صناعية ونفسية يهتدي بها المحقق الى المتهمين بغير خطأ كثير ، ومنها أداة كهربائية يقبض عليها المتهم ويواجهه المحقق بالاسئلة المريبة وغير المريبة فتسجل الاداة مقدار اضطرابه وافراز جلده للعرق ولو كان يسيرا ، لأن هذا الافراز يضعف مقاومته لتيار الكهرباء فيظهر الاثر على الفور في موضع التسجيل • قال هنري مورثون روبنسون كاتب المقال :

سألت الاب « سمرز » أن يجرب معي هذه الاداة فعمد الى تجربة خلاصتها أن يطلعني على عشر ورقات من ورق اللعب وأن أنتقي واحدة منها في ذهني ولا أبوح بها لغيري ، فأخذت ورقة القلبين الاثنين ثم عرضت علي الاوراق واحدة بعد واحدة والاب سمرز يسألني أهذه ورقتك ؟ فلما عرضت علي ورقتي تعمدت الانكار وقلت لا وأنا أراقب موضع التسجيل على الاداة لأرى الاثر الذي يظهر عليه ، وقد حاولت جهدي أن أحتفظ بسكينتي وقلة اكتراثي ولكن الاداة الكهربائية سجلت اضطرابي اليسير جدا مرة بعد مرة حتى اضطررت الى الاعتراف » •

وأشار الكاتب الى أسلوب « نفسي » يعتمد على تداعي الخواطر للكشف عن سرائر المتهمين ، فاذا كانت التهمة سرقة مائة دولار في محفظة

سوداء من درج مكتب وضع المحقق خمسين أو ستين كلمة وتلاها واحدة بعد واحدة على المتهم وطلب منه أن يعقب على كل كلمة بغير روية • فاذا تريث المسئول أكثر من ثانيتين ونصف ثانية وهي المدة الطبيعية للتعليق فهناك وجه للريبة ، واذا تليت عليه بين الكلمات كلمة مائة دولار ثم كلمة درج ثم كلمة مكتب ثم كلمة محفظة ثم كلمة سوداء وأطال الوقوف عند كل منها فهو اذن يعلم شيئا يريد اخفاءه ويجفل من ظهوره •

هذه أساليب مفيدة لا يحسن اهمالها وترك البحث فيها ، ولكن ينبغي مع التوفر على دراستها أن نذكر : « أولا » أن العقاقير الحاجبة للارادة قد تمكن المحقق من املاء الاعتراف على المتهم وارهابه حتى يخاف الافضاء بسبب الاعتراف • وأن نذكر « ثانيا » أن العقول تختلف في قوة العارضة وسرعة الجواب فيتلجلج المسئول وهو بريء ويخشى أن يحسب المحقق هذا التلجلج دليلا على اتهامه ، فيضطرب ويزداد اضطرابه كلما ألح عليه هذا الخاطر ولمح من المحقق ما يؤيد وهمه ، وربما أعانت سرعة الخاطر انسانا آخر على تحضير الجواب المناسب دون أن يظهر عليه من الاضطراب ما يلفت النظر أو يريب •

وأن نذكر « ثالثا » أن اتقان أساليب التحقيق لا بد أن يقابله من الطرف الآخر اتقان أساليب الاجرام وتخصص المجرمين في دراسة أساليب الشرطة وأساليب المحققين والاستعداد لها بما يحبطها ويتغلب عليها • فتنشأ عصابات المجرمين المعروفين « بالمحترفين » والاخصائيين ، ولا يبقى من المتهمين من تفلح معهم تلك الاساليب غير الافراد المعروفين « بالهواة » لأنهم لا يجيدون الحرفة ولا يتعاونون فيما بينهم على اتقانها •

فلا ينبغي أن ننسى أن الاساليب العلمية لن تستأصل الجريمة من الدنيا ولكنها على كل ذلك لازمة ونافعة ، لأنها وسيلة لا يصح اهمالها ، ولا محيص لنا من استخدام كل وسيلة مستطاعة في هذه الحرب التي بقيت منذ أوائل عهد الناس بالاجتماع ، وستبقى على ما نرى من أحوالنا المعهودة الى زمن لا تعرف له نهاية •

بعض الاصلاح

في انجلترا يقسمون المسجونين لآجال بعيدة الى أقسام : يمتد القسم الاول الى ثمانية عشر شهرا والثاني الى سنتين ونصف سنة ، والثالث او القسم المخصوص ينتقل اليه السجين بعد أربع سنوات ، ومزية هـذا القسم أن يعطى فيه السجين بنسا كل يوم ويزاد كل سنة خمسي بنس الى أن تكمل الأجرة اليومية بنسين ولا يزاد عليها بعد ذلك ، ويباح لسجين القسم المخصوص ان يشتري التبغ والحلوى من أجرته اليومية ، وأن يشتري صحيفة أسبوعية وما شاء من الكتب المباحة سواء من أجرته أو من هدايـا أصحابـه •

ومزية القسم الثاني الذي هو دون القسم المخصوص بعض التحسين في الملابس والفراش والتوسعة في الرياضة والألعاب وشراء الصحف وما اليهـا •

ويتوقف الكثير من هذه المزايا على درجات السلوك وهي ثمانـي درجات لكل يوم ، ومن استوفى المقدار المطلوب من هذه الدرجات اسقط عنه ربع المدة واستحق التوصية عليه بعد خروجه لتدبير عمل ومـورد معيشة •

وفي السجون مكتبات تبلغ عدة الكتب في بعضها اثني عشر الف مجلد ، وتتلى على السجناء أخبار العالم مرة كل أسبوع ملخصة مـن الصحف السيارة ، ويباح لهم سماع الاذاعة وأغاني « الحاكي » ولعب الشطرنج وبعض الألعاب الرياضية ، وتلقى عليهم المحاضرات في موضوعات شتى يختارها مدير السجن أو قسيسه ، ويسمح لهم بالتمثيل وتنظيـم

الحفلات في أيام الأعياد ، وطعامهم على العموم خير في مادته وفي تنويعه من الطعام المسموح به للسجناء المصريين ، أما العقوبات فهي كما في مصر الجلد والسجن المنفرد وغذاء الخبز والماء .

ويؤخذ من رواية هانس فلادا[1] الألماني ومن بعض الرسائل الأوربية أن حالة السجون في أوربا تقرب من هذه الحالة وتشبهها كل المشابهــة أو بعض المشابهة بغير اختلاف في الجوهر ، الا الروسيا فان للسجن فيها نظاما مفرطا في التوسعة والترفية نعتمد في وصفه على كتاب السير جيمس برفس ستوارت « رحلة طبيب في روسيا » الشيوعية[2] اذ يقول من كلامه على مدينــة موسكو :

« كل حجرة على بابها مذيع ، والفراش نظيف ومريح ، والنوافذ المشبكة بقضبان الحديد واسعة ، والأبواب تترك مفتوحة الا ما بين الساعة الواحدة والساعة السادسة بحيث يتيسر للسجناء أن يتزاوروا كما يحبون . وقد مررنا بحجرة مغلقة أغلقها السجين باختياره فلما شعر بنا فتح الباب ودعانا الى زيارته وأخبرنا أنه حكم عليه بالسجن عشر سنوات لاختلاسه واحدا وسبعين الف روبل من مصنع سكر ، وأنه مفرج عنه ذلك اليوم ، وهو مغتبط متهلل بعد أن قضى في السجن ست سنوات وعشرة أشهر وسبعة وخمسين يوما وعوفي من قضاء المدة الباقية لاجتهاده وحســن سلوكه ، وقال لنا انه وجد وظيفة كتابية في مصلحة التجارة بسبعمائة روبل مشاهرة وسيبدأ العمل فيها على أثر خروجه .

« ويأكل السجناء في حجراتهم ريثما تبنى في السجن حجرة واسعة للمائدة العامة ، ويطلب من كل سجين أن يعمل ثماني ساعات كل يــوم تتخللها ساعة للطعام ، وينقسم السجناء الى قسمين فمن كان منهم أميــا يجهل الكتابة وجب أن يتعلمها على يد زملاء له من الذين كانوا مشتغلين

(1) Who once eats out of the Tin Bowl, by Hans Fallada.
(2) A physician's tour in Soviet Russia, by sir James Purves — Stewart.

بالتدريس خارج السجون ، أما المتعلمون فيلحقون ببعض مصانع السجن ليمارسوا صناعات يدوية معظمها من قبيل الغزل والنسج والخياطة والزركشة ، ولهم على ذلك مرتب يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين روبلا مشاهرة تودع بأسمائهم في خزانة السجن وتسلم اليهم يوم الافراج ، ويسمح للسجين أن ينفق حصة من مرتبه في شراء الملابس والتبغ واللوازم ما عدا المشروبات الروحية فهي محذورة ، وله بعد قضاء سنة يوم أجازة كل أسبوع يقضيه في بيته ، وتزاد الأجازة الى أسبوعين خلال السنوات التالية ، أما اذا كان السجين فلاحا فله أن يقضي ثلاثة أشهر في قريته أثناء الحصاد وللأصدقاء والأقارب أن يزوروا كل سجين مرة كل عشرة أيام أثناء السنة الاولى ومرة كل خمسة أيام فيما يلي ذلك من السنين ، لأنهم يختارون من بين السجناء وتعقد لهم لجنة لمعاقبة زملائهم الذين يخالفون النظام ، وانما يقصر حمل السلاح على الحراس الخارجيين ، بل قد تشرف اللجنة على تصرفات موظفي السجن وتقترح التعديل في بعض النظم المرسومة .

وهناك جماعة للتمثيل وأخرى للشطرنج وقسم للتصوير وقسم للموسيقى وقسم لهندسة الآلات ، ومكتبة فيها ستة آلاف مجلد تشتمل على التاريخ والصناعة والأدب والروايات ويشرف عليها كتبي رقيق في الثالثة والعشرين يقضي سنتين لاقترافه جريمة شهوية يخجل من التحدث عنها الا بأنها تقع تحت طائلة المادة ١٨٢ من قانون العقوبات . وقد حولوا كنيسة السجن الى مسرح جميل وأزالوا الجواجز التي كانت تفصل كل سجين عن زميله عند شهود العظة الدينية .

وكل يوم من أيام العمل يحسن السجين أداءه يعفيه من يوم ونصف من أيام العقوبة . وأيام العمل خمسة والسادس للراحة ، ومن يقصر أو يتكاسل يعاقبه زملاؤه بالحرمان من الاجازات والزيارات والمسليات وبعض المزايا الأخرى .

وفي السجن حمامات معتادة وحمامات تركية ساخنة ، وقد شاهدت حجرة الحلاق يغشاها عدة سجناء للتزيين والتجميل ، والأجرة عشرون كوبكا لحلاقة الذقن وثلاثون لقص الشعر وخمسة وأربعون للتدليك وثلاثون للتعطير وستون لحلق الرأس كله • أما قص الشعر كما يقص عادة في السجون فهو بالمجان •

« وفي السجن صيدلية ومستشفى يديره طبيب « غير سجين » وممرضة ، ويشرف على مطبخ المستشفى شيخ ظريف ذو عوارض وشوارب طوال يتلهى بلفها على أذنيه ! وعقوبته عشر سنوات لقتله امرأته غيرة عليها! وطبيب الأسنان يقيم في الحجرة التي كانت من قبل حجرة سوداء وهي الآن مضاءة واسعة النوافذ ، ومن هنا وهناك في الأبهاء العامة والحجرات عمدان الدعاية وصحف مصورة يكتبها السجناء ••• » الخ الخ

هذا نظام السجن في موسكو كما وصفه الطبيب الانجليزي الكبير ، ولم يقل لنا ما هي نتائجه في الحياة العامة ولكنه روى على أثر هذا الوصف ان السجناء لا يحاولون الفرار ولا ينصرفون من السجن في اجازة أو زيارة الا عادوا اليه • وهذا طبيعي لا غرابة فيه بعد ذلك الوصف ، وفي وسعنا أن نتخيله بغير مشاهدة ولا اخبار •

نقول ان هذا النظام مفرط في التوسعة والترفيه لأننا نعتقد أن ضرره أعظم من نفعه ، اذ المقصود من الرحمة بالسجين ان نجتنب الايلام الذي لا ضرورة له ولا منفعة فيه،وليس المقصود أن نحول السجن الى متعة يشتهيها بعض الطلقاء ويؤثرونها على حياة البيت ومتاعب الحرية •

ونتيجة هذه التوسعة على السجناء في الروسيا غير واضحة في الاحصاءات الرسمية لا في الكتابات التي اطلعنا عليها • ولكننا نستطيع أن نقيسها على ما حدث في الهند وهي بلاد تشبه الروسيا وتشبه مصر في طبقة المعيشة اذا صرفنا النظر عن نظام الحكم وعن الرخاء الذي تمتاز به البلاد المصرية • قال مستر رايت Wright الذي كان مفتشا للشرطة في أقاليم الهند الوسطى :

« أذكر في بعض أيام الشدة والكساد التي ندر فيها الغيث وجاع الفلاحون أنه رؤي من المصلحة أن يشار على القضاة باصدار أحكام الجلد على صغار السراق بدلا من ارسالهم الى السجون ... فنجع العلاج وأتى بالنتيجة المطلوبة ، ثم تبين أن جرائم السلب والسطو التي هي أعنف من السرقة الصغيرة تكفل لمقترفيها قضاء العقوبة في السجون فأخذت هذه الجرائم في الزيادة السريعة ، وأذكر في الأيام التي هي أروج من ذلك وأرغد أن أناسا تعمدوا السرقة ليستريحوا في أكناف السجون .... »

وقد رأيت في سجن مصر من اعترف لي بمثل ذلك ، ورأيت سجينا آخر يتخفى ولا يجيب نداء الحارس الذي يدعو المطلقين كل يوم ، لأنه يرجو أن ينساه الحارس ويظل في السجن أياما أخرى بغير عقوبة !

* * *

ان « نسبة » السجناء في مصر تلفت النظر بالقياس الى كثير من الأمم في أوربا وآسيا وأفريقيا، ويؤخذ في الاحصاء التقريبي المقارن الذي جمعته لجنة « عصبة الأمم » الموكلة بشؤون الجزاء والمسائل الجنائية ونشرته قبل بضعة أشهر أن عدد السجناء في مصر يبلغ مائة وستة واربعين من كل مائة الف من جملة السكان ، في حين ان هذه النسبة تنقص الى نحو تسعة عشر في حكومة ايرلندة الحرة ، وسبعة عشر في فلسطين ، وخمسة وستين في زنجبار وستة وخمسين في اليابان ، وسبعة وخمسين في استراليا ، وهي تزيد في بعض الأمم حتى تبلغ ثلثمائة وثلاثة وثمانين في « سيرة ليون » ومائتين وخمسة وسبعين في استونيا ، ومائتين واثنين وثلاثين في حكومة اتحاد افريقية الجنوبية ، وقريبا من هذه النسبة في بلاد شتى من أمم الحضارة . ولكن النسبة في مصر تلفت النظر مع هذا لأن الأمة المصرية لم تشتهر بحب الاجرام كما اشتهرت بعض الأمم التي لم تألف الحضارة والنظام ، فهل لأيثار معيشة السجن على معيشة البيت دخل في زيادة عدد السجناء ولو بين طبقة الأراذل والخلعاء ؟

يجوز هذا في نطاق محدود وحالات قليلة • ولكن ازدياد النسبة عندنا مرجعه فيما نظن الى سبب آخر غير ايثار معيشة السجن على معيشة البيت ، وهذا السبب هو تعاقب عصور الظلم والعسف والاستبداد حتى أصبح ضحية القانون وطريدة الحاكم موضع العطف لاموضع الازدراء ، وأصبح دخول السجن لا يعيب صاحبه كما يعيبه في عهود الحرية والانصاف، وسيزول هذا السبب رويدا رويدا ويعجل به الزوال كلما فهم الجهلاء والمنبوذون أن الخروج على الشريعة عداوة للمجتمع وليست عداوة للحاكم الظالم والحكومة الطاغية ، وسبيل ذلك هو التعليم والتربية الخلقية واصلاح المعيشة الاجتماعية لا تصعيب معيشة السجون وتعمد القسوة على السجناء •

ونحن كما أسلفنا في حل من كل تحسين ينقذ السجناء من الايلام الذي لا ضرورة له ، والتنغيص الذي لا نفع فيه ، ولا يغلو الى الحد الذي يغري بالاجرام والاستخفاف بالعقوبة •

ومن هذا التحسين فرض الكتابة والقراءة على الأميين وتدريب الصناع على صناعاتهم حسب الأصول الحديثة وتعليم من لا يحسنون الصناعات حرفة يبتغون بها الرزق والمعيشة الشريفة ، وتخصيص درجات لمن يجتهدون في نقص تعلم القراءة والكتابة أو في تعلم الصناعات واتقانها تحسب لهم في نقص مدة العقوبة وتوفير وسائل الراحة ، وتخول من يحصل عليها عند خروجه من السجن أن تضمنه الحكومة في عمل أو وظيفة ولو جازفت ببعض المال لتعويض الخسائر ووفاء الضمانات ، فقد ثبت أن البلاء الذي يعانيه السجين بعد السجن أشد وأنكى من بلائه بالاعتقال وضياع الحرية • لأن الناس ينفرون منه ويسيؤن الظن به ولا يأتمنونه على سعي ولا تجارة ، فاذا أمنوا عاقبة السرقة والاختلاس أقدموا على استخدامه وانتفعوا بكفاءته ولم يحذروا غدرات طبعه ، واستطاع كثير من الموصومين ان يستعيدوا حظهم من حياة العمل النافع والمكانة الاجتماعية •

ولا ضير من اباحة التدخين والأطعمة المنوعة والملابس الخارجية على أن يكون ذلك كله مزية يكافأ بها المستقيم ويحرمها المقصر والمسيء ، بل هذه المزايا خليقة ان توفر للحراس والرقباء أسباب العقوبة الزاجرة المعقولة وهي حرمان السجين بعض المزايا المشتهاة اذا أساء وخالف النظام ، بدلا من معاقبته بالجلد والمشقة والاعنات .

فقد رأيت كثيرا من السجناء يباهون بالقدرة على احتمال الجلد والمشقة ولم أر سجينا واحدا يستخف بأكل الخبز القفار ولزوم العزلة والحبس عن الرياضة ، فاذا كثرت المزايا كثرت الرغبة فيها والاجتهاد في تحصيلها وكثرت وسائل العقوبة الأدبية التي تليق ببني الانسان ، وقلت الحاجة الى العقوبات البهيمية التي ترهق البدن ولا تصلح النفس ، بل تعودها الفخر بما هو ادعى الى المهانة .

والسجناء في سجون سيبريا وجزيرة الشيطان وأمثالها من سجون أمريكا الشمالية والجنوبية ينامون على أسرة خشبية ، ولا ينامون على الأرض كما ينام جميع السجناء المصريين ما عدا المرضى والمحكوم عليهم في المحاكم المختلطة . فلماذا يجبر السجين المصري على الرقاد فوق « البرش » والأسفلت وهو ولا شك فراش لا تحتمله بنية الهزيل المهدد بالأمراض ولا تؤمن غوائله في الشتاء ؟ ان الرقاد على لوح من الخشب ليس من الترف في شيء ، ولكنه أصح وآمن وأدنى الى الكرامة والتهذيب ، فما نحن بحاجة الى تعليم الفقراء المصريين فضيلة النوم على التراب !

هذه التحسينات كلها ميسورة لمصلحة السجون المصرية ، ولها أن تظل على يقين أنها تستطيع توفيرها جميعا ثم يبقى السجن بعد ذلك سجنا يخيف من يخاف ويهذب من يتهذب ؛ بل يبقى سجنا ومدرسة ومستشفى ! وهي الأماكن الثلاثة التي تعودنا أن نهرب منها ونحن صغار ونحن كبار !!

فهرس

هذا الكتاب



هـــذه الصفحات هي خلاصة ما رأيته وأحسسته وفكرت فيـه يوم كنت انزل « عالم السدود والحدود » واشعر بـه ذلك الشعور ، وانظر الى العالم من ورائه ذلك النظر . لست اعنى بها ان تكون قصة وان كانت تشبه القصة في سرد حوادث ووصف شخوص ، ولست اعني بها ان تكون بحثاً في الاصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الاصلاح ، ولست اعني بها ان تكون رحلة وان كانت كالرحـــلة في كل شيء إلا أنها مشاهدات في مكان واحد ، ولا أن أستقصي كل ما رأيت وأحسست وان كنت أقول بعد هذا ان الاستقصاء لا يزيد القارىء شعوراً بما هناك .

العقاد

الثمن : قرش جنيه ٥٠٠, ١